قلوب عبير

آن ويل

الرحلة

www.elromancia.com
مرمورية

قلوب عبير

HARLEQUIN — "ABIR" — No. K 9

الرحلة

لم يصدقوا ان قريبتهم الهادئة تفكّر بالسفر مسافة ثمانية آلاف ميل لتفحص بيتاً متداعياً تركه لها عجوز غريب الأطوار وذو سمعة مشبوهة. ادهشهم اكثر تصميمها على التمسك بمشاريعها حيال اعتراضاتهم.

وها هي الآن مستلقية في مقصورة الطائرة وقد فقدت فرصتها الأخيرة لتغيير رأيها. فالرحلة ابتدأت ولا مجال للتراجع...

اما هو فقد اقترف غلطة في الماضي ويخشى الوقوع في اخرى... صدمه الحب وابعده عن فكرة الزواج الى الأبد.

لبنان ١٠ ل.ل.	الكويت ١ د	اليمن ٤ ر	السودان ٨٠٠ م
سورية ١٠ ل.س.	الامارات ١٢ د	تونس ١٥٠٠ د	U.K £ 150
الأردن ٨٠٠ ف	البحرين ١٥٠٠ د	ليبيا ١ د	France F 10
العراق ٥٠٠ ف	قطر ١٢ ر	المغرب ٥ د	Greece Drs 200
السعودية ١٢ ر	عمان ١٥٠٠ ر	مصر ١٠٠ ق	Cyprus P 1500

الضمير اعظم مفسّر للحياة.

كارل بارت

www.liromancia.com
مـــرمـــوريـــة

١ـ جاءت الفرصة أخيراً. فعرّابها توفي تاركاً لها ارثاً في الطرف الآخر من العالم. الجميع حذرها من جنون الرحلة ومخاطرها. ولكن عناداً كامناً جعلها تتمسك بقرارها بقوة.

فيما كانت فيفيان تثبت حزام الأمان حول خصرها الرقيق، لاحظت ان يديها ترتعشان. وللحظة انتابتها رغبة جامحة في الاندفاع من مقعدها الى الباب لكن المحركات انطلقت آنذاك واخذت الطائرة الضخمة تتقدم ببطء نحو المدرج الرئيسي.

أدركت بشيء من الذعر انها فقدت فرصتها الأخيرة لتغيّر رأيها فالرحلة قد بدأت ولا مجال للتراجع.

أزاحت الستار وتطلعت من كوة الطائرة لتهدىء من روعها. الزجاج يغشاه المطر ولم يكن هناك ما يرى عدا أنوار مباني المطار وراء المدرج المظلم حيث تعصف الريح.

لم تكن فكرة الطيران هي التي هزتها برهة، بل ادراكها بأنها ستكون وحيدة من الآن فصاعداً. فمهما تعقدت الأمور التي تنتظرها، عليها ان تواجهها بنفسها من دون ان تجد من تلجأ اليه للنصح او المساعدة.

الجميع حذّرها من جنون هذه الرحلة ومخاطرها. وطبلوا أذنيها خلال الاسابيع الخمس الاخيرة بكل المفاجآت الممكنة وكادت ان تستسلم مرات عدة. استعملوا معها كل الوسائل، من الدعابة الى التهديدات المبطنة لثنيها عن السفر، ولكن عناداً كامناً جعلها تتمسك بقرارها بقوة. والآن تلاشى توترها فجأة وشعرت بانتعاش لان المغامرة قد بدأت بالفعل ولأنها اصبحت حرة للمرة الاولى منذ

اثني عشر عاماً!

بدأت المحركات تهدر بقوة هائلة وانطلقت الطائرة بسرعة متزايدة حتى ابتلعت الظلمة آخر ضوء يرسم الحدود. كان الاقلاع ناعماً الى حد ان فيفيان لم تدرك انهم اصبحوا في الجو حتى انطفأت اشارة منع التدخين فوق مقعدها.

ـ هل من مانع ان ادخن؟

مرّت ثوان قبل ان تكتشف ان السؤال موجه إليها.

قالت على عجل:

ـ لا، ابداً.

منذ صعودها الى الطائرة كانت منهمكة بافكارها فلم تنتبه الى الرجل في المقعد المجاور، اما الآن وبما أنهما سيترافقان خلال الايام والليالي الثلاث المقبلة، اخذت تراقبه على غفلة منه.

بسبب طوله فبالكاد يتسع مجال الجلوس لساقيه. انه ذو سمرة غجرية وشعر أسود قصير وصورة جانبية يبرز فيها حاجبان كثيفان وأنف معقوف وفك بالغ القسوة. وما ان اشعل لفافته حتى استرخى في جلسة مريحة وفتح كتاباً. بدا لها انه كتاب دراسات، اذ رأت رسماً بيانياً معقداً على الصفحة اليمنى. من تلويح الشمس لبشرته رجحت انه عائد الى الشرق الاوسط او الاقصى. ولان قامته وعرض كتفيه اوحيا اليها بانه يقوم بعمل يتطلب جهداً، خيّل اليها انه لا بدّ ان يكون مهندساً او مزارعاً من نوع خاص. كان يرتدي بزة انيقة وربطة عنق داكنة ولكن بدا وكأنما يكون اكثر ارتياحاً في قميص للأدغال وشورت كاكي.

تجهم وجهها حزناً اذ تذكرت الجوّ العدائي الذي خيّم على رحيلها. ليتها سمعت شخصاً واحداً يتمنى لها التوفيق! حتى روجر الذي تعتبره ألطف اقربائها، ودّعها بجفاء أفهمها انها خسرت حسن ظنه فيها.

ـ ماذا تتناولين يا سيدتي؟

ظهور المضيف مع عربة المشروبات انتزعها من أفكارها.

وفيما كانت ترشف مشروبها، تأكد لها انه لا جدوى من التحسر على رحيلها الكئيب. ومن الماضي السحيق، عاودها صدى كادت تنساه، ورأت عبر السنين مايكل كونيل جالساً الى رأس الطاولة في فيلا على حوض البحر الابيض المتوسط مردداً كعادته: «لا اسف على شيء!».

وهكذا، بعد اثنتي عشر عاماً على وفاته، جاءت ذكرى شعاره المفضل لتمنحها مزيداً من الشجاعة.

عاد المضيف ليثبت الصواني الخشبية على مساند المقاعد وتبعته المضيفة بصحون حساء الفطر الساخنة. لكن جارها الاسمر الذي وضع كتابه جانباً خلال تناول الوجبة بقي صامتاً ولم تتجرأ فيفيان على فتح حوار. بعد العشاء ذهبت الى غرفة السيدات وحين وقف ليفسح لها الطريق، لاحظت ان زرقة عينيه الزاهية تتناقض بغرابة مع وجهه الداكن وشعره الأسود الأجعد.

بامكانها الآن اشباع توقها الى الثياب الانيقة. فمنذ غادرت المدرسة لم ترتدي سوى ثياب التويد الخرقاء وفساتين الحرير المزرية التي كانت الخالة كونستانس تعتبرها تناسب السيدات. لكن هذا الذوق لم يكن لينسجم مطلقاً مع فيفيان المرهفة الشخصية ولونها غير الاعتيادي. شعرها المشدود الى الوراء كان بشقرة العسل التي قلما تتجاوز الطفولة. ورثت عن أمها وجهها الناعم اما فمها الجذاب وعيناها اللوزيتان الرماديتان المائلتان الى الاخضر وحاجبيها المنسابان فقد ورثتها عن أبيها.

ما إن وصلت الى مقعدها حتى تعرضت الطائرة الى هزّة مريعة وكأنما يد عملاق أخرجتها عن طريقها. حاولت فيفيان ان تلتقط ظهر أقرب مقعد لكنها اخطأته ووقعت بين ذراعي جارها الصامت.

احمرّ وجهها ارتباكاً وحاولت جاهدة ان تستعيد وقفتها لتجد انه يحيط خصرها بحزم.

- هل أذيت نفسك؟

تكلّم بهدوء وكأنما من عادة الفتيات الغربيات ان يقعن في حضنه.

قالت بارتباك:

- كلا... انما... آسفة جداً. لم اكن اتوقع هذا.

استفسرت المضيفة التي جاءت مسرعة:

- هل انت بخير يا آنسة كونيل؟

فأكّدت لها وهي تشعر بالحرج:

- نعم، شكراً.

- من حسن حظك انك وقعت على الدكتور سترانسوم. يبدو اننا اصطدمنا بفجوة هواء كبيرة، ولكن ليس هناك ما يقلق. يجب ان اربط حزامك لفترة خوفاً من تكرار الارتطام.

تأكيداً لنصيحتها اضيئت اشارة ربط الاحزمة وابتعدت المضيفة لتطمئن الركاب بان الارتجاج طارىء عرضي. قالت فيفيان بعد ان جلست في مقعدها وقد ربطت حزام الامان:

- ارجو الاّ اكون قد ازعجتك؟

بدا الدكتور سترانسوم ضاحكاً من احساسها بالذنب:

- لست بالضبط من الوزن الثقيل. خذي لفافة لتهدئة أعصابك ففجوات الهواء هذه تثير الاضطراب في رحلة الطيران الاولى.

- لا، شكراً. لا أدخن. كيف عرفت انها رحلتي الاولى؟

- كنت تنتظرين الاقلاع وكأنك تواجهين فرقة الاعدام.

احمرّ وجهها. هل كان اضطرابها بادياً بهذا الوضوح؟ وتابع قائلا:

- لا عليك. كلنا نشعر بالخوف في المرّة الاولى.

وقبل ان تتمكن من متابعة الموضوع التقط كتابه الذي اوقعته بسقوطها المفاجىء، وبدأ يقلب الصفحات بحثاً عن المكان الذي وصل اليه.

ليس بحاجة لأن يظهر لها عدم رغبته في الكلام الى هذه الدرجة.

كم انه فظ...

بعد منتصف الليل بقليل، هبطت الطائرة في مطار روما حيث كانت تنتظرهم القهوة الساخنة ووجبة طعام خفيفة. معظم السيدات ومعهن فيفيان، اصطففن أمام اكشاك التذكارات حيث تباع مناديل الحرير وكنزات الكشمير وزينة الفسيفساء الايطالية.

في الطائرة، جلس المسافرون لقضاء ما تبقى من الليل. كانت المقصورة مريحة في ظل الانوار الخافتة. نزعت فيفيان حذاءها والتحفت بالغطاء الخفيف الذي زودتها به المضيفة. تمنت الاّ تكون تنورتها مدعوكة كثيراً في الصباح، ثم تذكرت انهم سيصلون الى ساحل لبنان المشمس وانه باستطاعتها ان تلبس فستانها الصيفي المطوي في حقيبة يدها.

كانت البارحة تتقلب على سريرها الضيق في البيت... لم يكن بيت خالتها بيتها فعلا فقد وصلته في العاشرة من عمرها ومذ ذاك لم يزل استغرابها اذ كانت دخيلة ودائماً غريبة ومدركة بانها قريبة فقيرة.

لقد ولدت في الريفييرا وأولى ذكرياتها تحمل زرقة السماء ونور الشمس وعبير الازهار متدفقاً من الهضبة التي تعلو الفيلاّ البيضاء. كانت طفولتها حرة تماماً، فمايكل وإيموجين كونيل المتحابان كانا بمثابة أخ وأخت لها. وعندما بلغت العاشرة من العمر، قتلا في حادث سيارة مروع. وقبل ان تستفيق من تأثير خسارتها الفظيعة، جاءت خالتها، السيدة كونستانس سينكلير وهي امرأة انكليزية بغيضة متوسطة العمر الى الفيللا وانتزعت فيفيان لترميها في كآبة انكلترا الرمادية الرطبة في منتصف الشتاء.

ومنذ ذلك الحين، تغير كل شيء، حيث عقص شعرها المتمرّد العسلي في جديلتين واستبدل الشورت وحذاء الرياضة ببزة رياضة بحرية قبيحة وبحذاء متين للسير وأرسلت الى مدرسة داخلية شهيرة حيث تقيم جوديث ومارغريت ابنتا خالتها. بعد الحرية المطلقة التي عرفتها، اصبحت حياة النظام الصارم الجماعية عاملا مطهّراً،

فتحولت من عفريت صغير ضاحك يضجّ بالحياة الى بائسة صغيرة شاحبة الوجه معقودة اللسان. أمّا أيّام الاعياد فكانت اسوأ. فبتتا خالتها تعذبانها دون رحمة بينما السيدة سينكلير تؤنبها باستمرار لمختلف المخالفات غير المقصودة. وجاءت الضربة الأخيرة حين قيل لها ان اباها الرائع، هو وغد ومبذّر وفق مقاييس سينكلير، وعندما هبت فيفيان للدفاع عنه، منعتها خالتها من ذكر اسمه.

قالت لابنة اختها بقساوة:

ـ اتمنى ان نتمكن يوماً القضاء على الخصال المؤسفة التي قد ترثينها عنه. الآن اذهبي الى غرفتك وحاولي الا تكرري مثل هذه التصرفات المعيبة.

وسرعان ما أدركت فيفيان انه لا جدوى من مقاومة ارادة خالتها الصلبة. عندما غادرت المدرسة كان الرضوخ قد اصبح امراً اعتيادياً بحيث انها لم تعترض على تجاوز الخالة كونستانس لاقتراحها التدرب على مهنة ما، وقبلت ان تتعلم قيادة السيارات والطباعة على الآلة الكاتبة والعمل كسكرتيرة للسيدة سينكلير. لكنها، تحت مظهرها الهادىء المطيع، كانت تتوق ضمناً لليوم الذي ستتمكن فيه من التخلص من سيطرة خالتها.

عندما جاءت الفرصة اخيراً في شكل رسالة من محام، كادت لا تصدق. فعرّابها، جون كانتغهام الذي لم تره منذ كانت في السابعة توفي تاركاً لها مبلغاً محترماً من المال وإرثا في الطرف الآخر من العالم. ولدى اعلان فيفيان قرارها بزيارة ملكيتها، ظنت عائلة سينكلير انها تمزح. وعندما ادركوا انها جادة دهشوا ولم يصدقوا ان تفكّر قريبتهم الهادئة الخنوعة بالسفر مسافة ثمانية آلاف ميل لتفحص بيتاً متداعياً تركه لها عجوز غريب الاطوار وذو سمعة مشبوهة! وقد ادهشهم اكثر التصميم الذي ابدته في التمسك بمشاريعها حيال اعتراضاتهم.

اخيراً، اصدرت الخالة كونستانس انذاراً واعلنت:

ـ اذا استمريت بمشروعك المجنون هذا يا فيفيان، احذرك بانني

لن استمرّ في اعالتك. انا مندهشة للطريقة الانانية التي تهزأين بها من رغبتي. اذا رحلت الآن، فلا مجال للعودة.

وبالتهور الذي كان من خصائص والدها المؤسفة اجابتها فيفيان:

ـ حسناً يا خالتي. يؤسفني ان يكون هذا هو شعورك لكني سأذهب الى الملايو بالرغم مما سيحدث.

الآن، وهي مستلقية في المقصورة المطفأة وقد انجزت الجزء الاول من رحلتها الطويلة، تساءلت عما اذا كان تمرّدها على خالتها ضرباً من الجنون. فجزء كبير من المال الذي تركه لها عرّابها انفق على تذكرة سفرها الى سنغافورة وما تبقى منه لن يكفيها الى الأبد. بامكانها ان تبيع الملكية ولكن ربما كانت قيمتها قليلة وفي هذه الحال ستضطر للعودة الى انكلترا وايجاد طرق لتأمين معيشتها. امر واحد يبقى اكيداً، وهو انها لن تلجأ ابداً الى عائلة سينكلير لمساعدتها. كانت تعرف انها مدينة لهم لاستقبالها في بيتهم. ولكن مع انهم اطعموها وكسوها وعلموها فلم يحبوها يوماً او حتى استلطفوها.

وفيما النعاس يتملكها فكرت ان ما تقوم به هو مقامرة مجنونة سوف تخسرها على الأرجح. لكن مايكل كان مقامراً. وكان يقول دوماً، اذا لم تغامر ابداً فلن تربح ابداً. اتساءل لماذا ترك لي العرّاب جون البيت؟ ربما لم يكن هناك احد غيري.

استيقظت على نور الصباح الباهت يتسلل عبر الستار. جلست بتلهف وازاحت الستار جانباً.

حركة وراءها جعلتها تلتفت، فرأت الدكتور سترانسوم يستيقظ. خمّنت عمره بخمسة وثلاثين او ستة وثلاثين عاماً ولكنه بدا اصغر حين ابتسم. ومع انه مدخّن مدمن فقد بدت اسنانه ناصعة البياض بالمقارنة مع لون بشرته.

في غرفة السيدات غسّلت وجهها واستبدلت ملابسها بفستان من الكتّان البيج ولما خرجت الى الممر رأت معظم الركّاب الآخرين يستيقظون. نساء قليلات نزعن تبرجهنّ الليل الفائت، لذلك بدَوْن

كالحات الوجوه فشعرت فيفيان بالامتنان لان وجهها جميل بطبيعته.

الدكتور سترانسوم عاد الى مقعده ونزع الجاكيت ورفع كميه، فاشتمت نفحة خفيفة من صابون الحلاقة. بعد الفطور بقليل بدأت الطائرة تهبط تمهيداً للنزول في بيروت. ولدى اجتيازهم المسافة المكشوفة في ضوء الشمس الساطع بدا من غير المعقول انهم كانوا منذ اقل من اثنتي عشر ساعة يرتعشون برداً في رطوبة مساء انكليزي من أمسيات كانون الثاني (يناير).

بالنسبة الى فيفيان بدا النهار والليل التاليين مسلسلاً من المناظر المتغيرة والازياء الغريبة واللغات المجهولة. استمروا في الطيران فوق الخليج العربي وعبر قارة الهند اللامحدودة واخيراً وصلوا الى بورما ومدينة رانغون الخضراء عشيّة اليوم الثالث، بينما قبة معبد شوي داغو المطلية بالذهب تتوهج في اشعة الشمس الغاربة.

بعد ثماني واربعين ساعة من الطيران، احسّ الركاب بالحر والانهاك وبحاجة ماسة الى حمام والى تغيير ثيابهم. معظمهم كانوا لا يزالون في ثيابهم الشتوية يتعرقون بشكل مزعج في القيظ الشديد. حتى قميص الدكتور سترانسوم التصق بظهره من العرق مبرزاً كتفين قويين وخصراً نحيلا.

الفندق الذي سيقضون فيه ليلة واسع وأرضه من الرخام وتتدلى من سقوفه مراوح كهربائية ضخمة. بعد التوقيع على سجل النزلاء تبعت فيفيان حمالا هندياً الى غرفتها التي كانت عبارة عن شقة فخمة تطلّ نوافذها العالية على فناء مغلق. كان السرير مغلفاً بناموسية بيضاء فوق اطار خشبي وتحت النافذة اريكة مريحة من الخيزران. أدار الحمّال المروحة وقبل بقشيشها بتحيّة صامتة ورحل وقدماه الحافيتان تنزلقان انزلاقاً على الارض. تنهدت فيفيان الصعداء وخلعت ثيابها الضيقة ووقفت تحت المروحة تتمتع بتيار الهواء على جلدها الحار. ثم ارتدت رداء وذهبت تبحث عن الحمامات. لدى اقترابها من نهاية الممر، هبّ شاب هنديّ يرتدي قميصاً داخلياً

وشورتاً كاكياً وقال مبتسماً لها بتودد:

ـ هل تريد آنستي حماماً؟

أومأت بالايجاب، ففتح الشاب باباً ورافقها الى حمام فسيح وفتح الماء الباردة والساخنة ثم وضع منضدة خشبية قرب المغطس وقام بحركة انيقة مفادها انه يقدم لها ارقى سبل الاستحمام في كل بورما وخرج.

أقفلت الباب وخلعت حذاءها. كان الماء بلون الصدأ لكن صوت تدفقه انعشها وشوّقها الى سرعة الاستحمام. لكنها ما ان خلعت رداءها حتى صرخت ذعراً اذ رأت اضخم صرصار رأته في حياتها يطلّ من تحت المغطس ويزحف باتجاه قدميها الحافيتين.

ظلّت نصف دقيقة مسمّرة في مكانها قرفاً ثم عاد الصرصار فجأة الى مخبأه. ساورتها الاستغاثة بالشاب المسؤول عن الحمامات ليقتله ثم أدركت انه حتى لو فهم ما تريد سيعتبرها في غاية السخف لتخاف من حشرة لا بد انها شائعة هنا. فاذا كانت تريد الاقامة في المناطق الاستوائية، عليها ان تعوّد نفسها على الزواحف، وقد تلتقي حتى ببعض الافاعي.

فكرة مواجهة الثعابين جعلتها تتسلق المغطس وبما انه من المحتمل ان يقرر الصرصار ان يصعد على جانب المغطس، عدلت عن التنعّم بالاغتسال، وبدلا من ذلك، استحمت واقفة وعينها تراقب بحذر حافة المغطس تحسباً لظهوره من جديد.

بعد ساعة، نزلت الدرج وهي ترتدي قميصاً وتنورة قطنية. ولدى اجتيازها المقصف رأت طاقم الطائرة يرتاح. كانت المضيفة قد ارتدت فستاناً باهتاً وبدت اكثر تألقاً.

توقفت عند عتبة الردهة. كان الدكتور سترانسوم والبروفسور ليتون وهو عالم بأصول الانسان، نحيل، اشيب، تحدثت اليه فترة في كالكوتا جالسين قرب الباب وامامهما كأسان طويلان من الشراب المثلّج.

قال البروفسور مبتسماً:

ـ آه، آنسة كونيل. هل تنضمين الينا؟ (وقرّب كرسيا ثالثاً).

شكرته فيفيان وتطلعت الى الدكتور. كان قد انتصب واقفاً لكن وجهه بدا خالياً من كل تعبير ولم تتأكد من ترحيبه بمجيئها، لأنه لم يوجه اليها الكلام طيلة اليوم.

ـ ماذا تريدين ان تشربي؟ اني انصح بعصير الليمون، لا احد يضاهي البورميين بصنع الليمون الطازج!

نادى البروفسور نادل المقهى وقال بعد ان طلب الشراب:

ـ في مثل هذا الوقت غدا نصل الى وجهتنا. لا استطيع القول بانني اتمتع بالسفر جواً. لا شك انه يوفر الكثير من الوقت لكنني أتساءل احياناً اذا كانت الرغبة العصرية في السرعة قوة مدمّرة اكثر منها بناءة. اظن انني قديم الطراز بتفكيري.

سألته فيفيان:

ـ ما الذي يأخذك الى الملايو يا بروفسور؟

ـ انني اجري دراسة عن بعض القبائل المجهولة الأصل. لقد حدثني الدكتور سترانسوم عن عدد من الرحلات الاستكشافية غاية في الاهمية قام بها في الداخل. انك تعمل في موبينغ يا سترانسوم اي في ولاية براك الشمالية، اليس كذلك؟

قالت فيفيان باندفاع:

ـ موبينغ؟ انا ذاهبة الى هناك!

علق الطبيب بجفاء:

ـ احقاً؟

فمات فيض الاسئلة على شفتيها. من الواضح ان الدكتور سترانسوم لا يريد التحدث معها عن موبينغ.

سألها البروفسور عما اذا كانت زيارتها ستطول وهو غير مدرك للتحفّظ القائم بين رفيقيه فأجابت:

ـ لست ادري كم من الوقت سأمكث. لكن ذلك يتوقف على

مدى انسجامي.

لكن وجه الطبيب ظل جامداً ولم تعرف اذا كان فهم قصدها.

ـ ستتمتعين بالاقامة يا آنسة كونيل، فسكان الملايو عرق مبهج، ومع ان الطقس مرهق، فالمناظر الطبيعية خلابة... خلابة جداً. اذا انهيت شرابك اقترح ان ننتقل الى غرفة الطعام.

اخذوا امكنتهم حول طاولة في قاعة الطعام المبردة فتابع قائلا:

ـ اعترف بانني اتطلّع الى نوم مريح. من الصعب النوم عميقاً في الطائرة لمن هم في سني. الا انني اظنك تريدين رؤية المدينة قبل النوم آنسة كونيل؟

ـ نعم، ارغب في زيارة المعبد.

قال البروفسور وهو يركّز نظارتيه لدراسة قائمة الطعام:

ـ اعتقد انه من الحكمة ان تصطحبي احداً.

ـ لن اذهب سيراً على الاقدام. سأستقل احدى العربات. هناك صف منها عند المدخل.

فقال الطبيب:

ـ البروفسور لينتون يعرف الشرق اكثر مما تعرفينه يا آنسة كونيل. من غير المستحسن ان تخرج امرأة انكليزية بمفردها ليلا. اعتقد انك لا تتكلمين اللغة؟

ـ كلا، لا اتكلّمها. لكنني قادرة على العناية بنفسي يا دكتور سترانسوم.

ـ لا شك... في مدينتك، في الوطن. هذه آسيا.

ـ الا تبالغ في التخوّف؟

تفحصها بنظرته ثم قال:

ـ انها ازمنة مضطربة. لو اختبرت شعباً اسيوياً يا آنسة كونيل، لما كنت بهذه الثقة. الروايات والافلام تعطي صورة في غاية الرومنطيقية عن الشرق.

فردّت بشكل لاذع:

ـ لست تلميذة.

فتدخل البروفسور:

ـ يا سيدتي الفتية، اني متأكد من ان الدكتور سترانسوم لم يقصد اطلاقاً بانك تلميذة.

ذاب انزعاج فيفيان ازاء لطافته فقالت:

ـ اعتذر ان بدوت فظّة. في الواقع اظن انني سأنام باكراً. لم ادرك كم ان الحر مرهق، وقد اتمكن من رؤية المعبد عند عودتي.

بعد ان اكّدت للبروفسور انها غيرت رأيها فعلا، استدرجته الى التحدث عن ابحاثه ومرّ باقي الوقت في جو ودّي على الرغم من عدم اشتراك الدكتور سترانسوم في الحديث. مرة او مرتين رأته يراقبها بتعبير ساخر.

في الواقع، فقد زاد نصحه الأبوي في تصميمها على رؤية المزار الشهير.

بعد العشاء عادوا الى الردهة لتناول القهوة وعندما تمنّى لها البروفسور ليلة هانئة ادّعت انها ذاهبة الى غرفتها. وبعد ان صعدت الى الطابق الأوّل، نزلت الى الدرج وانسلّت بحذر عبر البهو ثم استوقفت احدى العربات.

فيما كانت تعبر الشوارع في العربة الصغيرة الرثة والمريحة في آن، وقميص السائق تخفق في نسيم الليل وقدماه تنزلقان على الدواستين، شعرت فيفيان بشجاعة ممتعة. فعلى الرغم من ان لا سلطة للدكتور سترانسوم تخوله منعها من زيارة المعبد بمفردها، فان ممانعته اضفت على النزهة نكهة اضافية. غداً ستخبره بأنّها قامت بها وتضيف ملاحظة مقتضبة عن اهتمامه غير الضروري.

بعد رحلة بدت قصيرة جداً، انزلها سائق العربة عند مدخل المعبد. واذ رأت امرأة بورمية تخلع خفّيها، حذت حذوها وتركت حذاءها مع بائع زهور ابتاعت منه باقة من الياسمين.

بدأت تتسلّق السلّم الضخم بدرجاته الدافئة والناعمة تحت

أخمص قدميها الحافيتين. على جانبي الطلعة منصّات لبيع الأزهار والأجراس وحلى صغيرة وشمسيّات بيضاء صغيرة تهدى لبوذا. كان الباعة ينظرون اليها لدى مرورها ولكنهم لم يظهروا اهتماماً زائداً بوجودها ولا عداوة بالتأكيد.

في اعلى الدرج وقفت على سطح مكشوف والقبب الذهبية الضخمة شاهقة فوق رأسها. كان السطح يتوهّج بنور مئات الفتائل العائمة في صحون زيت صغيرة وتفوح في الهواء رائحة ازهار الياسمين واللوطس. ثم رأت فتاة بورمية راكعة أمام صورة ضخمة مطليّة بالذهب ورأسها الأنيق محني بخشوع.

انتهت من استكشاف المعبد بردهاته الكثيرة المظلّلة في الساعة التاسعة والنصف، ولمّا استرجعت حذاءها من بائع الازهار الودود، قرّرت ان تعود الى الفندق سيراً على الاقدام. كان الليل رائعاً بملايين النجوم المتألقة في سماء مخمليّة سوداء فبدأت تدرك معنى سحر المدار الاستوائي. في مثل هذه الساعة تبدو المدن الانكليزية مقفرة وغامضة أما هنا في رانغون فالشوارع تبدو اكثر حركة منها في النهار. فالناس يجلسون القرفصاء في الشوارع، يدخّنون ويثرثرون، والأطفال يعدون في الأزقة. في مكان ما يصدح غراموفون وصوت بائع متجول يغني ترويجاً لبضاعته.

كانت فيفيان مأخوذة بهذا النشاط الليلي فلم تعر اهتماماً للطريق. بدا لها ان الرحلة الى المعبد قد استغرقت عشر دقائق وتخلّلها انعطافان الى اليسار. اذن السير يجب ان يستغرق نصف ساعة بانعطافين الى اليمين. وفيما كانت تتبع مجموعة عربات، انعطفت الى اليمين. وقطعت مسافة قبل ان تدرك ان الشارع اكثر هدوءاً من الشوارع السابقة. عند الزاوية انعطفت ثانية الى اليمين ووجدت نفسها في طريق ضيقة ومظلمة.

فيما تنبهت بانها ضلّت طريقها، قرّرت ان تتابع سيرها. فلا بدّ ان تطلّ على طريق رئيسية تستدل بواسطتها الى طريق العودة. مضت

عشر دقائق ولم يظهر أمامها اي شارع عام، فشعرت بوخزة انزعاج. فالحي الذي دخلته خطأ هو من الشوارع الخلفية ذات الأزقة المسدودة، اما البيوت فصغيرة وكان الناس الجالسون عند مداخلها يصمتون لدى مرورها ويراقبونها بتركيز مثير للأعصاب.

ثم رأت امرأة عجوزاً تقترب باتجاهها وعندما أصبحت قبالتها تردّدت فيفيان وقالت:

ـ فندق ستراند؟ ستراند.

نظرت اليها المرأة بعينين جامدتين وتابعت طريقها.

ـ أرجوك، لا تذهبي... (ومدت فيفيان يدها ولمست ذراعها) ستراند. فندق ستراند.

هزّت المرأة رأسها بازدراء. وفجأة تجمهر حولها شلة من المتفرجين. ولعدم اعتيادها على الطريقة السحرية التي يتجمهر بها الآسيويون فجأة حول اي شيء، سواء أكان حادث سيارة او شجار محلّي، شعرت بالذعر اذ وجدت نفسها مطوّقة بجمهور متعاظم من المتفرجين. وبدأت العجوز تبربر بأعلى صوتها. وفي كل مرة تتوقف لتأخذ نفساً تجري همهمة بين الجمهور. وفي محاولة لاسكات رعبها قالت بصوت متوتّر:

ـ اريد الذهاب الى فندق ستراند. لا بدّ ان احدكم يعرف اين يقع. فندق ستراند.

ابتسموا لها بسخرية ورأت شاباً مجدّر الوجه على جبينه ندب جرح عميق يحدق الى حقيبتها.

تحقّقت انهم لا يستطيعون او لعلهم لا يريدون مساعدتها فاستجمعت قواها وهمّت باجتياز الجمهور. ولكن بدلا من التنحي جانباً، وقفوا ثابتين، فخشيت ان تفتح طريقها بالقوة لئلا ينقلبوا عليها. أطبقت أسنانها بمرارة نادمة على غرورها السخيف الذي قادها الى هذا الوضع. لا جدوى من الاستغاثة في حي كهذا. ربما اذا اعطتهم المال القليل الذي تحمله...؟

فجأة تبدّد الجمهور مثلما كان قد تجمّع حولها وبسرعة لا تصدّق. حتى المرأة العجوز أسرعت بالرحيل تتمتم لنفسها.

شعرت بارتياح خالطته حيرة لانفضاضهم المفاجيء. بحثت في جيبها عن منديل. كانت قطرات العرق تتساقط على وجنتيها ويداها مبتلتين.

ـ آنسة كونيل؟ هل كنت تعزّزين العلاقات الانكليزية ـ البورمية ام انك وجدت اهتمامات اصدقائنا غير مرغوب فيها؟

ترنّح قلب فيفيان وبلمحة فهمت ما حصل. وقبل ان تراه واقفاً في الطريق على بعد امتار منها، عرفت ان ذلك الصوت البارد الساخر لا يمكن ان يكون غير صوت الدكتور سترانسوم.

راقبته، وقد ابكمها الخزي، يسير نحوها ويده في جيبه وقد لوت فمه ابتسامة بغيضة.

سألته بصوت مرتجّ:

ـ ماذا كنت تفعل هنا؟

ـ اقترح ان نناقش الامر فيما بعد، تعالي!

امسك بمرفقها ودفعها بقوة الى الشارع.

ـ هذا المكان ليس افضل جزء من المدينة وسكّانه غير معتادين على الضيوف الاجانب، لا سيما في مثل هذه الساعة.

كان دافع فيفيان الغريزي ان تحرر نفسها من قبضته لكنّها ادركت انها ستضيف بذلك زيتا على سخريته وتزيد من سخف موقفها. رضخت للأمر الواقع وفي دقائق معدودة كانا قد وصلا الى احد الشوارع الرئيسية.

أوقف الطبيب عربة وساعدها على الصعود اليها. وعندما جلس الى جانبها اكتشفت ان هذه الناقلات قد صممت لأناس اصغر حجماً من الاوروبيين. فعلى الرغم من انها حشرت نفسها في اقصى زاويتها فانها لم تتمكن من تجنب ضغط كتفه على كتفها.

قالت بمرارة عند انطلاقهم:

- لا بدّ ان ما حصل يسرك كثيراً.

- كلا، كنت افضّل ان امضي السهرة في المطالعة لكنني كنت شبه متأكّد من أنّك ستضلين الطريق او تقعين في قناة الامطار.

غمرت الحمرة وجهها وحمدت ربها لأن ظلال غطاء العربة تخفيها عنه. سألته بصوت مسحوق:

- كيف صادف وجودك هنا في تلك اللحظة؟

اشعل لفافة وعلى ضوء الولاعة رأت انه كان لا يزال مستمتعاً:

- رأيتك تنسلّين من الفندق.

- تعني أنّك تبعتني طيلة المساء؟

- نعم.

- هل تمارس هواية ملاحقة الناس يا دكتور سترانسوم؟

أجاب بنعومة:

- فقط عندما يصرّون على الوقوع في المشاكل.

فصاحت بغضب:

- اعتقد انّك تجاوزت الحدّ الأقصى. فبأي حق تتعقّبني في المدينة وتظن انني غير قادرة على الاهتمام بنفسي؟

فسألها بلطف:

- هل انت قادرة؟

- كوني دخلت المنعطف الأخر ولم استطع التفاهم مع هؤلاء الناس لا يعني بالضرورة انني كنت معرضة للسرقة او القتل.

- بالتأكيد لا. ومن المرجّح انك كنت ستخافين كثيراً... حتى اكثر مما كنت خائفة.

سألته بسخط:

- ما الذي يجعلك تعتقد انني كنت خائفة؟

فمد يده وأخذ رسغها وقال باقتضاب:

- نبضك المسرع.

- آه! اعترف بأني خفت. أرجو ان يرضيك ذلك كثيراً.

- على الاطلاق، فلقد حذّرتك من تعريض نفسك لمثل هذا الموقف. هل من عادتك تجاهل النصح دائماً ام فعلت ذلك لأنني انا نصحتك بذلك؟

قالت بعصبية:

- لا يمكنك ان تتوقع مني شعوراً بالودّ تجاهك.

- لم لا؟

لم تجب.

مرت هنيهة. ثم قال:

- تقصدين لأنني لم اعرك اهتماماً خلال الرحلة؟ لأنني لم ابد حماساً خاصاً لجلوسي قرب الفتاة الجذابة الوحيدة في الطائرة؟

لكم كان ذلك قريباً جداً وبعيداً جداً في الوقت نفسه عن الحقيقة بحيث لم تجد شيئاً ترد به.

سألها بجفاء:

- اهذا ما اعتدتّ عليه؟ اهتمام الرجال بك؟

- كلا، ليس هذا ما قصدت.

- هلا شرحت اذن ماذا الذي قصدتيه فعلاً؟

فقالت بسأم:

- اني... آه. لا شيء. لا يهمّ.

احسّت فجأة بأنّها مرهقة. فالحادث بحد ذاته وتوبيخات الطبيب المهينة أرهقت اعصابها اكثر مما تصوّرت فتاقت الى الانفراد بنفسها كي تنهي هذه المساجلة الكلامية المزعجة.

انعطفا حول زاوية وتوقفا امام الفندق فقفز سترانسوم من العربة ومدّ يده لمساعدتها لكنّها تجاهلتها ونزلت مثقلة من التعب ومصممة على الاّ تسمح له بان يكتشف مدى تعبها. رمى بقطعة نقدية للصبي وصعدا الدرج الى البهو. قال:

- يجب ان تغسلي قدميك بمطهر قبل ان تدخلي غرفتك. لا اظنّك تريدين الوصول الى الملايو وانت مصابة بمرض جلدي.

اومأت فيفيان بالقبول، فمهما كرهت ان تكون مدينة له، احست انّ عليها واجب الاعتذار منه.

قالت بهدوء:

ـ آسفة يا دكتور سترانسوم لأنني انفعلت. انني ممتنة لمساعدتك ولن اسبب لك ازعاجاً في المستقبل.

ـ من الأفضل الاّ تفعلي. فليس من عادتي ان اكون حارساً. في المرة المقبلة، عليك ان تنقذي نفسك بنفسك ان وقعت في مأزق. تصبحين على خير.

وقبل ان تتمكن من الرد، انحنى امامها باحترام وابتعد عنها.

صبيحة اليوم التالي بدأوا الشوط الاخير من الرحلة، متوقفين ساعة في بانكوك عاصمة سيام المتألقة الى ان وصلوا الى سنغافورة بعيد الظهر. حافظت فيفيان على صمت رصين طيلة المرحلة الاخيرة من الطيران، لكنّها شعرت رغماً عنها بخيبة لأن الدكتور سترانسوم لم يودّعها لدى هبوطهم.

في قاعة الاستقبال، التقاها روبرت آدمز، محامي عرّابها، وهو اسكتلندي اشيب، انيس الوجه يرتدي بزة قطنية بيضاء وقبعة بنامية الشكل. وحال اخراج امتعتها، قادها آدمز الى فندق رافلز. لا شك انه توقّع ان تكون اكبر سناً او مختلفة بشكل ما ولم يتوقف عن التمعن فيها كما لو أنها اوقعته في حيرة.

قال لها وهما يتناولان الشاي في الردهة:

ـ الطائرة الى موبينغ تقلع غداً في الحادية عشرة يا آنسة كونيل. لقد أوعزت لخادم عرّابك الراحل ان يلاقيك. اسمه تشن وهو يجيد الانكليزية. من جهتي سآتي الى المنطقة خلال ثلاثة أسابيع وستكونين عندئذ قد كونت فكرة عن موضوع الارث.

وبعد ان تباحثا في الأمر سألته فيفيان عرضاً:

ـ هل تعرف احداً يدعى دكتور سترانسوم في موبينغ، يا سيّد آدمز؟

ـ بكل تأكيد. كان صديقاً حميماً للسيد كاننغهام ومستفيداً من الوصية. لا شك ان عرابك قد ذكر الطبيب في رسائله اليك.

هزّت فيفيان رأسها بالنفي. كان عرّابها يراسلها مرّتين سنوياً، بمناسبة عيد ميلادها وعيد الميلاد ولم يحدّثها مطلقاً عن اي من مواطنيه.

اخذ آدمز يقلب غليونه بعصبية ثم قال بارتباك:

ـ اظن ان من واجبي ان اخبرك يا آنسة كونيل ان عرابك كان ناسكاً الى حد ما. لم يكن لديه متّسع من الوقت لمواطنيه وقد استعدى البعض. وحسب معرفتي، فقد كان الدكتور سترانسوم، صديقه الحميم الوحيد، فان وجدت نفسك في مأزق، انصحك باللجوء اليه.

كبتت فيفيان ضحكة وتساءلت عما سيقوله آدمز لو عرف أنّها قد التقت الطبيب وانه تنصل منها.

سألها آدمز:

ـ هل هناك شيء آخر تريدين الاستفهام عنه؟ لقد توقعت ان تكوني اكبر سناً. طبعاً هذا لا يغير شيئاً، والآنسات الشابات اعتدن السفر بمفردهن هذه الايام.

ابتسمت فيفيان. ليته يعرف كم كانت حياتها محاصرة لأيام خلت.

ـ سيد آدمز... قد يبدو سؤالي غريباً لكن هل تعرف لماذا ترك لي عرّابي ملكيته؟ اذ لم تكن هناك صلة دم بيننا ولم اره لسنوات عديدة. كنا غريبين في الواقع.

نظر اليها المحامي متأملاً وقال بعد تريّث:

ـ نعم، انه سؤال غريب من عدّة أوجه. لكنّ جون كاننغهام كان رجلاً غريباً. لقد وضع وصيّته قبل وفاته بأشهر معدودة. اعتقد انه كان يشعر بأن شيئاً ما سيحدث... وفي ذلك الحين قلت له ان وصيته غير عملية. فالأمر الطبيعي هو بيع الملكية والتوصية لك

بالريع لكنه اصرّ على ان ترثي الملكية كما هي.

فسألته بسرعة:

- اذن فقد تعمد ان آتي الى هنا؟

- نعم، كان يأمل ذلك. وسبب عدم ايضاح ذلك في الوصية نتج عن رغبته في الاّ تعتبري ذلك واجباً عليك. لقد فكّر انك ربما كنت مرتبطة وتنوين الزواج او ان لديك مهمة لا تستطيعين قطعها.

فهمست لنفسها:

- اذن كنت محقّة!

ثم أردفت بصوت مرتفع:

- هذا ما اعتقدته لدى تسلمي لرسالتك ولكن ذلك بدا غامضاً بشكل ما. ظننت لفترة انني مخطئة. ويريحني ان اعرف انني كنت محقّة.

- هل لي ان اسألك سؤالاً شخصياً يا آنسة كونيل؟

- بالطبع!

- هل كنت سعيدة مع هؤلاء الاقارب الذين عشت معهم؟

نظرت اليه وقالت بصراحة:

- كلا، لم اكن سعيدة. لقد احسنوا اليّ وانا أكنّ لهم امتناناً لانّهم استضافوني، لكنني لم اكن سعيدة ابداً.

قال باقتضاب:

- هذا ما تكهن به عرّابك.

- كيف حدس ذلك وهو لا يعرفهم؟

أفرغ آدمز غليونه وملأه من محفظة قديمة. مرّت دقائق قبل ان ينجز العملية بشكل يرضيه ثم بحث في جيوبه عن ثقاب. وعندما أشعل الغليون اعتدل في جلسته وقال بتمهل:

- ربما وجب الاّ أخبرك بهذا، لكني اعتقد انّ ذلك سيساعدك على رؤية طريقك بوضوح أكثر. عندما توفي والداك، كان جون كاننغهام في الصين. وحالما عرف بما حصل توجّه الى بريطانيا لرؤية

خالتك. كان يريد ان يتبناك. لكنّها رفضت الافتراق عنك وقبلت بالمقابل عرضه بان يسدد أجور تعليمك ومصاريفك الاخرى.

استقامت الى الامام وهي تُحدق فيه مذهولة:

- ماذا؟... لم تكن لديّ أيّة فكرة! خالتي لم تذكر ابداً امراً كهذا!

قال بجفاء:

- لا... خيل اليّ أنّها لم تفعل، لذلك ترين ان الصلة بينك وبين عرّابك كانت أقوى مما ظننت.

أذهلتها هذه الأخبار فقالت بعد صمت طويل:

- اذن، في الوقت الذي كنت اعتقد انه يجب عليّ ان اعترف لخالتي بفضلها عليّ، كان عرابي هو الذي يعيلني فعلياً.

- نعم، هذا ما حصل فعلاً.

- اذا كان عرابي يريد ان يتبناني، لماذا رفضت خالتي؟ فهي لم تحبني ابداً.

- قلما تكون دوافع الناس واضحة. أرجو الاّ اكون قد أقلقتك يا عزيزتي باطلاعك على هذه الوقائع، لكنني كنت أكنّ محبة واحتراماً كبيرين لجون كاننغهام واعتقد انه يجب ان تعرفي الحقيقة. فقد يؤثر ذلك على قرارك بالنسبة الى مستقبل الأرث.

أجابت بهدوء:

- انا مسرورة جداً لأنك اخبرتني يا سيد آدمز. ليتني عرفت ذلك منذ فترة طويلة. هذا يفسّر اشياء كثيرة عجزت عن فهمها.

لم يكن آدمز رجلاً يعبّر عن عواطفه. كان عازباً يتضايق من سلوك الفتيات العصريات بتبرجهن وحركاتهن غير المتكلفة. اما الآن، ولأول مرة منذ سنوات طويلة، شعر بحنان غريب نحو هذه الفتاة الصغيرة ذات العينين الصافيتين والنظرات الحائرة. ولدهشته رأى نفسه يربت على يدها ويقول بلطف:

- يجب ان ترتاحي الآن، لقد اجتزت مسافة طويلة وأمامك الكثير لتفعليه. عندما تصلين الى موبينغ ستجدين تشن الذي سيهتم بك.

سآتي لزيارتك بعد أسبوع او اسبوعين. في هذه الاثناء، بامكانك الاتصال بي هاتفياً في مكتبي. تشن يعرف الرقم. اتمنى لك حظاً سعيداً يا عزيزتي واذا جاز التعبير، اعتقد ان عرّابك قد ترك ارضه بأيد امينة.

عندما استأذن وخرج، جلست فيفيان تعيد التفكير بما كشفه لها. لقد غاب عنها في البداية سبب رفض خالتها ان يتبنّاها عرّابها. ثم بدأت الدوافع تتراءى لها تدريجياً.

جون كاننغهام كان أقرب صديق لوالدها، ومن المرجّح انهما كانا متشابهين. وبرفضها التنازل عن وصاية ابنة اختها، ربما شعرت السيدة سينكلير انها كانت تنتقم من مايكل كونيل الذي كانت تبغضه بطريقة غامضة وملتوية ومع ذلك فقد قبلت المال لاعالة فيفيان. أحسّت بموجة قرف أثلجت اطرافها وفكّرت بحماسة «لن أعود ابداً... ابداً».

لم تدرك انها غرقت في أفكارها لأكثر من ساعة، سألها نادل المطعم الصيني عما اذا كانت ترغب في تناول شراب قبل العشاء. ابتسمت له وهزت رأسها نفياً وذهبت الى غرفتها حيث أخرجت حاجاتها لقضاء الليل. ثم توجهت الى مكتب الاستقبال وأملت برقية مقتضبة لعائلة سينكلير تبلغهم بأنها وصلت بخير. كما تأكدت من ساعة اقلاع الطائرة الى موبينغ صباح اليوم التالي وحجزت سيارة لتنقلها الى المطار.

سارت نحو قاعة الطعام وهي تتساءل كيف ستمضي المساء حين سمعت صوتاً يقول:

ـ عفواً، هل سمعتك تقولين انك ذاهبة الى موبينغ؟

ورأت رجلا نحيفاً اشقر الشعر، يرتدي سروالاً قطنياً ناصع البياض وقميصاً مفتوحاً عند العنق، يقف الى جانبها.

ـ ارجوك، اعذريني لتحدثي اليك بهذه الطريقة. ولكن هناك نحو ثلاثين اوروبياً في موبينغ فقط وعندما نسمع بوصول شخص

جديد، تنتصب آذاننا تلقائياً.

ثم ابتسم ليسترضيها فبدت أسنانه ناصعة البياض. أردف قائلا:

ـ ادعى باركلي. جوليان باركلي. اني عائد بطائرة الصباح أيضاً، لذلك يمكنني ان أعرّف عن نفسي الآن يا آنسة...

فقدمت فيفيان نفسها.

ـ ارجو ان لا تكوني غاضبة يا آنسة كونيل؟

سألته بتعجب:

ـ كلا. ولماذا أغضب؟

قال بضحكة خفيفة:

ـ الفتيات الجميلات يحذرن دائماً من التحدث الى رجال غرباء، اليس كذلك؟ ويفترض في سنغافورة ان تعج بذوي الاخلاق المنحلة. اسمعي، لماذا لا نتقاسم غروب الشمس معاً وأحدّثك كل شيء عن موبينغ؟ ام أنّ عائلتك ترافقك؟

ـ كلا، انا هنا بمفردي.

ـ حسناً. هل نتوجه اذن الى البهو؟ الجو أبرد هناك ولن يزدحم قبل فترة.

بينما كان مضيفها يطلب الشراب، ألقت عليه فيفيان نظرة فاحصة. بدا في السابعة والعشرين وغير متكلّف. تبادر لها انه نقيض الدكتور سترانسوم بالمظهر والسلوك معاً.

سألته لدى وصول الشراب:

ـ كم من الزمن أمضيت في الملايو يا سيد باركلي؟

ـ ستة أشهر للأسف!ـ وأخرج علبة سكائر ذهبية قدّمها لها ـ انني رجل مغترب يعيش من أموال الوطن. فعائلتي رأت انني لا أحمل الحياة محمل الجدّ فأرسلتني الى هنا لأعاني قسوة الحياة لفترة ما. كان بالامكان أن يكون الوضع أسوأ. ما الذي جاء بك؟ لا تبدين مرشدة اجتماعية وانا متأكد من أنك لست بمبشرة أيضاً.

قالت فيفيان بتهرب:

ـ آه... الأعمال فقط.

اعجبها جوليان باركلي للوهلة الاولى ولكن بعد الذي سمعته من المحامي عن وجود خصوم عرّابها في بعض المناطق، شعرت انّه من غير الحكمة ان تأتمنه على أسرارها قبل ان تتعرّف اليه عن كثب.

ـ ان كنت ستتوجّهين الى فندق الاستراحة، فسوف تحتاجين الى قناع واق من الغاز. فهذا موسم الدوريان.

ـ موسم ماذا؟

ـ الدوريان. انها فاكهة استوائية لذيذة المذاق لكنّ رائحتها كالبيض الفاسد. اثناء الموسم تعبق المدينة بأسرها برائحتها وفندق الاستراحة يقع مقابل سوق الفاكهة.

ـ الامر سيّان فأنا لن أنزل هناك.

ضحكت لمرأى الفضول يرتسم على وجهه، فسألته:

ـ هل موبينغ مدينة كبيرة؟

استند جوليان الى مسند كرسيه ومدّد ساقيه، فلاحظت انه يتنعل حذاء مصنوعاً باليد. علبة سكائره وولاعته من الذهب وكذلك ساعته دون ريب. يبدو انه شاب ذو امكانيات. قال:

ـ انها متوسطة الحجم. هناك ناد للسباحة وقاعتان للسينما ومخزن أوروبي. اجتماعياً هي ميته. الجميع يعرف الجميع وليس هناك ما يفعلونه سوى الأكل والشرب والنوم والثرثرة. وبعد ان توفّي رجل الأسرار أصبح سوق الفضائح راكداً.

ـ رجل الاسرار؟ من هو؟

ـ رجل عازب كبير السن غريب الاطوار، عاش بمفرده في قصر ضخم على حدود المدينة ورفض التعاطي معنا جميعاً. كان يتنقل في سيارة رولز- رويس قديمة وعلى سطحها شعار علم بريطانيا كان مجنوناً بالطبع وكنّا نتسلّى بالتحدث عن تصرّفاته الغريبة.

تذكّرت ما قاله لها آدمز في وقت سابق، فسألته:

ـ الم يكن يدعى كانتغهام؟

ـ بلى. اذن انت سمعت عنه؟

لم يعد لديها خيار الآن الاّ ان تكشف الأمر فقالت له بهدوء:

ـ لقد كان عرّابي.

فارتفع حاجباه وقال بارتباك مثير للضحك:

ـ يا الهي! انني متأسّف للغاية! طبعاً لم تكن لديّ اية فكرة... هذا سيجعل الألسنة تدندن. أتقصدين انك ستعيشين في ذلك الضريح الضخم؟ آه يا الهي، لم اقصد ذلك. اقصد انهم يقولون انه قصر حقيقي من الداخل، اشبه بقصر حكاية الاميرة النائمة، ويحيط به حاجز من الادغال.

قبلت فيفيان اعتذاراته المتدفقة وأقرّت له بأنّها ستقيم في منزل عرّابها مدة من الزمن.

فقال:

ـ من الأفضل ان تهيئي نفسك لأن تكوني الموضوع الرئيسي لثرثرة موبينغ لمدة اسابيع. فالجميع سيريد رؤيتك... أتساءل كيف ستكون ردة فعل الدكتور سترانسوم؟

ـ الدكتور سترانسوم؟ لقد التقيته في الرحلة من لندن.

ـ حقاً؟ آه، نعم، الآن ادركت. لقد ذهب الى بريطانيا بعد وفاة كانتغهام- عرّابك لالقاء محاضرة. كيف وجدتيه؟

ـ بالكاد عرفته. لماذا تتوقّع منه انطباعاً مختلفاً؟

قال جوليان بشيء من التلذّذ وكأنه يتوقّع موقفاً مثيراً:

ـ لأنه الاوروبي الوحيد الذي كان على علاقة بعرابك. ولأنّه من النوع الذي لا يأبه للنساء، اعتقد انه لم يعرف من تكونين حقيقة؟

ـ كلا، لا اعتقد.

ـ آه يا آنسة كونيل! أتوقّع ان تصبح الحياة اكثر حيوية بعد مجيئك. اننا بحاجة لما يبعد عنا الملل. واذا لم اكن مخطئاً فان وصولك سيثير ضجة.

قالت بحرج:

ـ ارجو ان لا يحصل ذلك. لا أريد ان اكون محطّ اهتمام.

ـ انت أول فتاة أجدها عازفة عن ذلك. فمعظم الفتيات يثيرهن الاهتمام.

ـ لا بد انني مختلفة عنهن، فأنا أفضّل الهدوء والسكون. سيد باركلي، أتساءل ان كنت لا تمانع في عدم ذكر التفائك بي؟ فاذا كنت ساكون مدار حديث فاني احتاج الى يوم أو يومين لأستقر أولا.

فقهقه ضاحكاً وقال:

ـ آسف، ولكن من الواضح انه ليس لديك فكرة عن مدينة صغيرة في الملايو. أولاً ان سكان البلاد سيهتمون بك بقدر ما سيهتم بك الجمهور الانكليزي، ثم لا أمل لديك باجتياز المدينة من دون ان يلاحظك احد.

وأضاف:

ـ لا تقلقي يا فتاتي العزيزة. فقليل من الكلام لا يضر أحداً. وهو سيتوقف عندما يرون انك كائن بشري. فالثرثرة تحتاج الى شيء تقتات به وأنت تبدين لي طبيعية وساحرة للغاية.

ثم رمقها بابتسامة معينة. لم يكن هناك مجال للخطأ فالاعجاب واضح في عينيه الفرحتين البنيتين. شعرت فيفيان باحمرار ينسل من حلقها الى وجهها، ثم قال:

ـ هل تتناولين العشاء معي؟ لا يمكنك ان تمضي أول مساء في سنغافورة وحيدة. كذلك اريد ان ابحث معك في هذا الوضع المثير. أرجوك، قولي نعم.

حاولت فيفيان ان تتصور رد فعل عائلة سينكلير لو استطاعت رؤيتها تجالس شاباً غريباً دعاها لتوه لتناول العشاء. انهم سيصدمون حتماً ويعارضون. الدكتور سترانسوم سيعارض أيضاً وحدست بأنه سيعتبر جوليان شخصاً يعوزه التهذيب.

قال جوليان مستفزاً:

ـ تبدين شديدة الشك. هل تريدينني أن انادي المدير ليطمئنك

بأنني مواطن محترم ملتزم بالقانون؟

ضحكت معجبة بطريقته المتهورة في معالجة الحياة وبسهولة تودده وأجابت برزانة:

ـ شكراً يا سيد باركلي سيسرني تناول العشاء معك.

www.elromancia.com

٢ ـ أخذها الهلع أمام منظر الطريق الوعرة المهملة . لا يعقل ان يكون هذا مدخل قصر فخم . وبخوف متزايد خطر لها أن تشن لا بد ان يكون محتالاً .

ـ ها هي موبينغ . . . قلب الشرق الغامض ! .

وابتسم جوليان باركلي بسخرية وهو يشير الى مجموعة سطوح تتلألأ في شمس المغيب .

ولتوقها الى رؤية المحطة الأخيرة في رحلتها ، إنحنت فيفيان الى الأمام وتفحصت المناظر الجوية . من هذا الارتفاع ومن هذه المسافة ، بدت موبينغ أكبر بقليل من قرية منتشرة .

ـ ما هذه القبب البيضاء ؟

تطلع جوليان من فوق كتفها :

ـ آه ، هذا هو قصر السلطان . والقبة الكبرى تشير إلى الحريم حيث يقفل على نساءه الجميلات .

ـ حقاً ؟

أخذت الطائرة تهبط وأصبح بإمكانها أن ترى طريقاً واسعة يجللها العشب ودروباً خاصة وحدائق فسيحة على جانبيها .

قال لها جوليان :

ـ هذا هو شارع غوبنغ حيث يقيم الصينيون الأغنياء ومعظم الأوروبيين . أما نادي السباحة فأبعد بقليل . . . طبعاً لديك حوضك الخاص . لذا لست مضطرة الى القدوم إليه الا اذا أردت ذلك .

ـ حوضي الخاص ؟

ـ ألم تعلمي أن السيد كاننغهام بنى حوضاً لدى شرائه البيت ؟ لم يره أحد منا لكن الشائعة تقول انه يليق بهوليوود .

ـ لم تكن لدي أية فكرة . أرسل لي المحامون بعض التفاصيل عن المنزل وأضافوا انه توجد حديقة كبيرة وعدة أطيان من الممتلكات الصغيرة !

رفع جوليان حاجباً ساخراً :

ـ ممتلكات صغيرة ، هه ؟ انه لكلام متواضع حقاً . في الملكية ما يشكل عملياً قرية . لقد جعل عرّابك هوايته إعادة تأهيل سجناء محليين باعطائهم قطع أرض للحراثة . لا تقلقي فحسب معلوماتي ليس بينهم مجرمون خطرون .

فقالت بصوت منزعج :

ـ يا الهي ، لم اعلم باحتمال وجود مستأجرين . أين تقع الأملاك ؟ هل يمكنني رؤيتها من هنا ؟

أشار بالنفي :

ـ إنها في الطرف الآخر من المدينة . دعيني آتي الى البيت لاطمئن الى استقرارك بسلام . ففكرة انتزاعك الى المجهول بمفردك لا تروق لي .

بدأت الطائرة تحط . وفيما كانا يشدان حزام الأمان قالت فيفيان :

ـ هذا لطف بالغ منك يا جوليان لكني أفضل الذهاب بمفردي . الخادم يجيد الانكليزية وسأكون على أتم ما يرام .

حمل جوليان حقيبتها بيد وتأبط ذراعها باليد الأخرى وتوجها معاً الى الجمارك . وفيما كانت تنظر الى ضابط الجمارك وهو يفحص حقيبتها بشكل آلي ، لمس جوليان يدها . عندما استدارت وجدت صينياً قصيراً ونحيلاً يقف بجانبها . كان يرتدي بدلة قطنية ناصعة البياض ويمسك بقبعة بنامية . وعلى كمّه شريطة سوداء . عمره صعب التحديد يتراوح ما بين الأربعين والستين عاماً ووجهه خالٍ

من أي تعبير .

قال بصوت ناعم ورفيع :

ـ أهلاً وسهلاً في موبينغ يا آنسة كونيل . أنا تشنّ ، خادم المرحوم السيد كاننغهام الأول . انني انتظر تعليماتك .

قالت فيفيان :

ـ كيف حالك تشن ؟

ثم تساءلت عما اذا كان هذا الرد يصلح لاستقباله المتقيد بالرسميات . مدّت يدها تلقائياً لكن الصيني انحنى أمامها ثانية وقال :

ـ السيارة بانتظارك عندما تصبحين جاهزة .

وقف جانباً وأشار الى صبي صيني صغير بحمل الحقيبة .

واذ فاجأ هذا اللقاء فيفيان استدارت لتودع جوليان ولمحت غمزة خفيفة . فاقترح قائلاً :

ـ ما رأيك في الذهاب الى النادي هذه الليلة ؟ لا يمكنك قضاء سهرتك الأولى وحيدة . فان جئت في حوالي الثامنة سيكون لديك الوقت لتتعرفي على الوضع . ويمكنني ان اعرفك الى بعض المقيمين البريطانيين .

ـ اذن سأكون جاهزة في الثامنة .

احتفظ بيدها أكثر مما يجب فبعث وميض عينيه احمراراً في وجنتيها .

قادها تشن الى الموقف حيث شاهدت سيارة رولز رويس قديمة الطراز .

وفكرت فيفيان حين أوصلها الى المقعد الخلفي الوثير :

ـ يا للسماء ، ما هذا الغنى !

في البداية جلست مستقيمة وتواقة الى رؤية كل شيء . لكن عندما وصلا الى المدينة ، لاحظت ان السيارة كانت تلفت الأنظار فانكفأت الى الزاوية بعيداً عن العيون السوداء الفضولية التي كانت

تحدق فيها . ثم اضطر تشن الى السير ببطء لأن المارة كانوا يتجولون في الشارع غير عابئين بالسيارات المقبلة . وتوقف في مكان ما للسماح لصف طويل من اطفال المدارس الصينيين بالعبور ، ورأت فيفيان امرأتين انكليزيتين تسيران على الرصيف . ولدى محاذاتهما الرولز رأتاها في السيارة فتسمرتا في مكانهما محدقتين فيها وكأنها شبح .

بعد اجتيازهما المدينة زاد تشنّ سرعته . ثم تركا الطريق العام وسلكا طريقاً أضيق تتخللها من جانب منحدرات تكسوها الأشجار ومن الجانب الآخر نهر بطيء .

أخذها الهلع أمام منظر الطريق الوعرة المهملة . لا يعقل ان يكون هذا مدخل قصر فخم . وبخوف متزايد خطر لفيفيان أن تشنّ لا بد أن يكون محتالاً . أمسكت بطرف المقعد وهي تتساءل عما إذا كانت ستتجرأ على القفز من السيارة والعودة الى الطريق على أمل اللقاء بسائق آخر . ليتها قبلت عرض جوليان بمرافقتها !

لكن حين مدّت يدها لتفتح الباب مالت السيارة في إنعطاف مفاجيء فتنهدت ارتياحاً واستلقت الى الوراء على الجلد المنجّد .

كان تحولاً مذهلاً ! منذ لحظة بدا وكأنهما يدخلان غابة ، اما الآن فالطريق ممهدة بالحصى الناعم وتحيط بها جنائن خضراء تتخللها شجيرات منسقة . ثم انعطفا مرة ثانية ولأول مرة رأت فيفيان إرثها : بيت الينابيع السبعة .

البيت طويل ومنخفض تعلوه أفاريز صينية معقوفة فيما مصاريع نوافذه الخضراء مفتوحة على الجدران البيضاء . كانت هناك شرفة فسيحة تمتد على طول الواجهة ونباتات مزهرة تلتف حول الأعمدة الرشيقة التي تسند السقف كالعرائش .

انتزعها همس تشنّ المهذب من تمتعها العميق وبدون أن تتفوه بكلمة تبعته الى الشرفة عبر بوابة ضخمة من الخشب الى بهو معتم وبرد بمراوح عالية .

والتقت عيناها بستة ازواج من العيون البنية .

فقال تشن :

ـ هؤلاء هم خدمك يا آنسة كونيل .

انحنت ست رؤوس ملساء احتراماً ثم أطلق تشن ستة أسماء اسيوية وكأنه قائد وحدة عسكرية يقدم جنوده للتفتيش ، وفي الأخير قدم فتاة صينية ، كاللعبة ، ترتدي بدلة قطنية وسروالاً واسع الساقين . كانت تدعى كيم .

قال تشن بانكليزيته الخالية من الأخطاء :

ـ لم يكن لدى السيد كانتغهام نساء هنا إنما لدى سماعي بمجيئك أخذت المبادرة بتوظيف وصيفة لك .

ـ شكراً تشن ، كان ذلك في غاية الاهتمام .

ثم ابتسمت لكيم وحصلت في المقابل على انحناءة خجولة .

وسأل تشن :

ـ هل ترغبين في أن تقودك الى غرفتك ؟

ـ نعم أرجو ذلك . كان الجو حاراً جداً في الطائرة وأود الاستحمام .

ـ حسناً . سأطلب الشاي . بعد أن تتناولي الطعام وترتاحي سأريك البيت .

ثم صفق فاختفى الخدم باستثناء كيم . كلمها تشن بالصينية ثم التفت نحو فيفيان قائلاً :

ـ انها لا تتقن الانكليزية جيداً . فاذا وجدت صعوبة في افهامها رغباتك اقرعي الجرس وسأحضر .

فتحت الوصيفة باباً وأشارت لفيفيان بأن تتبعها . اجتازتا حجرة انتظار ودخلتا شقة أوسع بكثير من الأولى حيث كان الجو منعشاً . واكتشفت فيفيان فيما بعد ان هذا الجزء من البيت مكيّف . كانت النوافذ محجوبة بستائر حديدية مستقيمة تتخللها الشمس بتألق ذهبي جميل . في مواجهتها سرير ضخم تعلوه لوحة مرصعة بعرق اللؤلؤ ،

ويغطيه دثار من الحرير العاجي مطرز بأزهار قرمزية . ويتشكل الأثاث الأساسي من أريكة منخفضة تراكمت فوقها طراريح مطرزة وخزانة خشبية ضخمة محفورة ومكتب قرمزي . اما الأرضية فكانت مبلطة ببلاط فستقي وتكسوها عدة سجادات أنيقة من صنع بخاري . وفيما كانت فيفيان تستحم ، سمعت ادخال حقيبتها الى الغرفة المجاورة ، ولما دخلت الغرفة كانت كيم قد جهزت لها ثياباً نظيفة .

بعدما ارتدت ثيابها ومشطت شعرها قادتها الوصيفة الى الشرفة حيث جهزت عربة الشاي قرب مقعد من الخيزران . وعلى الرغم من عدم اعتيادها على نكهة الحليب المعلب ، شربت كوبين من الشاي وتناولت عدة سندويشات رقيقة .

لم تكد تنتهي حتى ظهر تشن وسألها :

ـ هل ترغبين الآن في رؤية المنزل ؟

فقفزت واقفة وقالت :

ـ بالتأكيد . (واضافت) تشن ، هل كان السيد كانتغهام يشغل الغرفة التي اشغلها الآن ؟

ـ كلا ، يا سيدتي ، فان غرفته تقع في الطرف الآخر من الباحة الداخلية .

شعرت بأنها لن تنسى مدى الحياة هذه الجولة الأولى في المنزل . فكل غرفة تبدو اكثر روعة من سابقتها . شرح لها تشن ان المنزل بني على شكل مستطيل يحيط بفناء داخلي بحيث تتمتع كل غرفة بنوافذ على جهتين . في الأيام الحارة من النهار تكون الستائر مغلقة والنور الخافت يظل مريحاً للبصر .

لدى وصولها الى قاعة الاستقبال ، شهقت فرحاً . فكل شيء هنا مصمم على شكل تموجات رمادية مختلفة ، بدءاً من الجدران وانتهاء بأغطية الكتان الرمادية الغامقة التي تغطي الكراسي والأرائك . ان مثل هذا التصميم مثير للقشعريرة وللكآبة في بلد

كانكلترا اما هنا في الخط الاستوائي فانه يوحي ببرودة معتدلة وباتساع المكان .

قال تشن وهو يقودها نحو خزانة واسعة ملأى بالأوعية الغريبة الأشكال وبالتماثيل الصغيرة المنحوتة :

ـ هذه هي مجموعة الجاد الشهيرة . انها غنية جداً استغرق جمعها سنين عديدة .

لفتت انتباهها لوحة معلقة في فجوة في الجدار . كانت تمثل بيتاً ابيض يطل على شاطىء . وفجأة أحسّت احساساً غامضاً بأنها تعرفها . اقتربت اكثر ورأت في الزاوية اليسرى توقيع م . كونيل . فهنا على حائط غرفة الاستقبال يوجد تذكار لجنة طفولتها المفقودة .

ـ هل تشعر سيدتي بتوعك ؟

ـ لا ، لا ، انا بخير يا تشن .

وكبتت الدموع المفاجئة التي لسعت جفنيها ثم قالت بنعومة :

ـ هذه صورة البيت الذي ولدت فيه . رسمها أبي . وقد توفي منذ سنوات عديدة .

لم يبد الصيني أي تعليق لكن تعبيراً غريباً تأرجح في عينيه السوداوين . وبعد قليل سألها :

ـ هل ترغبين في رؤية الفناء ؟

ـ نعم ، بكل تأكيد .

تقدمته عبر الباب وقد بهرها سطوع الشمس الذي لم يتضاءل ووجدت نفسها في حديقة مسوّرة . ولدهشتها رأت شجرة ياسمين كبيرة تحمل كمية كثيفة من الأزهار البيضاء وتحتها أريكة هزازة مظللة ، ووراء الشجرة حوض منخفض يحيط بتمثال حجري .

ابتعد تشن ولمس مفتاحاً كهربائياً على جدار البيت ، فانبعثت همهمة خفيفة ، وفجأة انطلق ستار من الماء فوق الحوض فانتفضت فيفيان . وصاحت :

ـ آه ، بالطبع . . . الينابيع !

سبعة نوافير بالفعل ، اعلاها يخرج من رأس التمثال بينما تتدفق الست الأخريات على الجوانب كبتلات زهرية رائعة متألقة .

وصاحت :

ـ ما أجملها ! ان خريرها كالموسيقى .

وكطفل مستمتع ، مدّت يديها ليتساقط عليهما رذاذ الماء الناعم . كانت كل قطرة تلمع كالبلوّر . وعندما استدارت لتكلم تشن ، كان قد ذهب .

جلست في الفناء تراقب النوافير . وبين حين وآخر تسقط بتلة من اغصان الشجرة ، ومرّت فراشة زمردية الجانحين فوق كتفها . كان خرير الينابيع مهدئاً للغاية فاستلقت على الأريكة الهزازة وشعرت بالنوم يتسلل اليها تسللاً .

عندما استيقظت كان نور الشمس قد خف وكيم تقف الى جانبها مبتسمة وهي تحمل كوباً كبيراً من العصير . قالت برضى :

ـ لقد نامت سيدتي جيداً .

أخذت فيفيان تشف العصير وتطلعت الى ساعتها . انها السادسة والنصف . تساءلت في اي وقت ينوي تشن تقديم العشاء . وجاء الجواب على تساؤلها بظهور صبيين صغيرين من الخدم يحملان طاولة وضعاها بجانبها وشرعا في وضع الصحون .

عندئذ خرج تشن وقال :

ـ كان من عادة السيد كاننغهام تناول العشاء هنا ، لكن اذا كانت سيدتي لا ترغب في ذلك . . .

ـ بل ارغب في ذلك اذ لا يمكنني ان افكر في مكان أجمل منه لتناول الطعام .

فقال تشن وهو يقرّب شوكة ويصحح مكان الأبريق :

ـ الليلة ستذهب سيدتي الى النادي مع السيد باركلي ، لذلك طلبت العشاء ساعة قبل الموعد المحدد .

كادت فيفيان ان تسأله كيف عرف أنها ذاهبة الى النادي حين

تذكرت انه كان يقف الى جانبها عندما وجه اليها جوليان الدعوة الى ذلك . وعلى الرغم من ان وجهه يشكل لغزاً ، الا انها بدأت تكتشف الكثير عن الخادم الأول لعرابها بطرق غير مباشرة . لم يكن خادماً عادياً كما بدا واضحاً . وملامح السلطة وتآلفه مع كل قطعة من مجموعة الجاد كانت تشير الى انه كان على علاقة وثيقة بعرابها . تساءلت عما شعر به ازاء مجيئها . هل استاء في سره ؟ هل يشك في أمرها ؟ هل أدرك انها ستبقى هنا فترة قصيرة ؟ مهما تكن الأجوبة على اسئلتها ، فقد باتت لديها قناعة راسخة بأنه من المهم جداً أن تكون على علاقة ودية مع تشن .

كان العشاء ممتازاً . قرص من العجة خفيف كالريشة تبعه فريدس بالتوابل ثم فاكهة أناناس مع القشوة .

قبل أن تدق الساعة الثامنة بثوان معدودات سمعت فيفيان هدير سيارة تصعد الطريق ، وبعد برهة لفت سيارة مكشوفة الغطاء المنعطف الأخير وتوقفت مثيرة هبة من الحصى . ولما قفز جوليان من مقعد القيادة ، بادرها وهو يصعد الى الشرفة ويرفع يدها ليقبلها :

ـ مرحبا . تبدين في غاية الانتعاش والجمال . (وأضاف) بالمناسبة ، لقد انتشر نبأ وصولك كالنار في الهشيم . كنت آمل أن ادخل بك النادي لأراقب وجوههم وأنا اعرّف عنك . ولكن يبدو أن ثرثارتين رأتاك تعبرين المدينة في سيارة كانتغهام وتكفلتا باذاعة الخبر فوراً .

فقالت مترددة :

ـ نعم ، رأيتهما . لقد بدتا في غاية الذهول . اني اخشى مقابلة الجميع .

ـ لا تقلقي . سأهتم بك . كان يجب أن تحملي معطفاً فالطقس بارد في ما بعد .

فكرت فيفيان بحرج ان المعطف الوحيد الذي تملكه هو عبارة عن سترة صفراء من الصوف المحبوك . وفيما وقفت مترددة ، ظهرت

كيم في المدخل وهي تحمل على ذراعها شالاً من الحرير الأبيض . قالت : « الليل قارس جداً . خذي سيدتي هذا . » .

فسألها جوليان :

ـ اي نوع من الرجال يمثل خادمك الأول ؟ ففكرة قضائك الليل بمفردك لا تروقني .

فقالت بثقة :

ـ سأكون بأمان كلي في البيت . فتشن يبدو كفؤاً وكيم في غاية اللطف .

ـ لا يمكنك مطلقاً أن تطمئني الى الصينيين . فقد ينحنون احتراماً أمامك لسنوات ثم يقطعون عنقك بدون رحمة اذا كان ذلك يناسب مصالحهم .

وحين رأى نظرتها المشدوهة أضاف بسرعة :

ـ هذا لا يعني انك قد تتعرضين شخصياً لخطر كهذا . فعرابك كان على اتفاق معهم . من الضروري أن تريهم بأنك الرئيس والاّ استغلوك بطرق ملتوية .

تركته يقودها عبر غرفة الانتظار الى القاعة الرئيسية بتوتر يبعثه خوف الظهور على المسرح ولكن مع ابتسامة توحي بالرزانة . وما ان عبرا العتبة حتى لف الصمت القاعة بأسرها . لم يستغرق ذلك عشر ثوان عاد بعدها طنين الحديث . لكن فيفيان شعرت خلالها أن أربعين عيناً أخذت تتفحصها من قمة رأسها الى أخمص قدميها . ولولا يد جوليان على ذراعها لأسرعت هاربة .

بدت المسافة القصيرة الى المقصف وكأنها مائة متر . وعندما ساعدها جوليان على الجلوس على أحد المقاعد العالية وجلس الى جانبها شعرت وكأنها بذلت جهداً عضلياً عظيماً .

ـ ماذا تتناولين ؟

ـ عصير اذا سمحت .

ـ لا بد ان تأخذي شيئاً أقوى من العصير ، ما رأيك ؟

ـ افضل تناول مرطب خفيف .

ـ كما تشائين .

أخذت فيفيان تراقب اخوانها الأوروبيين خلسة . معظمهم كانوا متوسطي العمر باستثناء مجموعة من الضباط الشبان في احدى الزوايا ، وامرأة شقراء تجالس بعض الرجال الماجنين قرب النوافذ .

قال جوليان وقد تبع نظراتها :

ـ الرجال ذوو العيون المحتقنة بالدم مزارعون يمضون اجازتهم الاسبوعية . اما الشقراء الجميلة فزوجة ضابط يقضي معظم وقته في الأدغال . انها تشغل نفسها في غيابه كما ترين .

ـ ألا تعتقد انك تصيغ الأمور بطريقة مشوّهة للسمعة ؟

ـ ليس تماماً . فلا أحد يهتم هنا بهذه الأمور الصغيرة ، فالزواج المبارك سرعان ما يصبح مملاً في الشرق وجميعنا متحررو الأفكار .

انعكس امتعاضها على وجهها فتلاشت ابتسامته الساخرة وسألها سريعاً :

ـ ما بك ؟ هل العصير حامض ؟

أشارت بالنفي . لم يكن الوقت مناسباً لتناقشه حول المناقب ، وسيعتقد انها ساذجة جداً لو باحت له بأنها ليست متحررة الأفكار كمواطنيها . وبرغم بغضها للطريقة المستهترة التي تحدث بها عن تسليات السيدة الشقراء لم تشأ ان تفقد دعمه عند هذا الحد .

وفجأة انبعث صوت :

ـ جوليان يا لك من شقي ! لماذا لم تحضر الحفلة التي أقمتها يوم الجمعة ؟

واقتربت امرأة قصيرة بدينة ذات عينين سوداوين برّاقتين وتسريحة معقدة مصبوغة بالأزرق وهي تنظر الى جوليان بمزيج من العتاب والغنج .

فقال وهو يقبل أناملها البدينة بحركة مسرحية :

ـ مرحباً يا مادج . آسف بخصوص الحفلة فقد انشغلت تلك

الليلة . ألم تقرأي رسالتي ؟

فقالت بخبث وهي تلكمه بمروحتها مداعبة :

ـ عمل ؟ لا اصدق ذلك . اعتقد انه كانت لديك مهمة اكثر إثارة مع احدى جميلاتك الصينيات يا ماكر .

فسعل جوليان وبدا عليه الارتباك . ثم قال بشيء من التسرع :

ـ مادج ، أعرفك الى الآنسة فيفيان كونيل . فيفيان . . . السيدة كارشلتون . .

فقالت السيدة كارشلتون وعيناها تتفحصان وجه الفتاة وقامتها بسرعة وشمولية :

ـ أهلاً بك في موبينغ يا عزيزتي . اذن السيد كاننغهام كان عرابك . لقد صدمنا جميعاً لنبأ وفاته . كان رجلاً رائعاً .

فسألتها فيفيان :

ـ هل عرفته جيداً ؟

ـ ليس بشكل حميم طبعاً . كان متحفظاً كالعديد من الرجال اللامعين . لكنني كنت شديدة الاعجاب به . واذا كان بامكاني مساعدتك بأي مجال فيجب أن تطلعيني على ذلك فوراً .

ـ هذا لطف منك .

ـ هراء، سيكون من دواعي سروري . اعتقد انك في غاية الشجاعة لتأتي الى هنا بمفردك . كيف وجدت البيت ؟

ـ لم تسنح لي الفرصة بعد لاستكشافه بدقة .

ـ اقدر ذلك . جوليان ، لماذا لا تأتي بالآنسة كونيل الى طاولتنا ؟ الجميع متشوقون للتعرف اليها .

خلال ساعة واحدة وجدت فيفيان نفسها تتعرّف الى سلسلة من الغرباء الذين تحدثوا عن المرحوم جون كاننغهام بعبارات ودودة بحيث صعب عليها التصديق بأن عرابها كان ناسكاً مشاكساً وعلى خصام مع مواطنيه الأوروبيين . الا ان جوليان نفسه كان قد أكد لها من قبل أقوال السيد آدمز .

كانت تصغي الى فكاهة طويلة يرويها رجل ممتلىء الوجه ذو شارب أحمر عندما بدأت السيدة كارشلتون فجأة تلوح لقادم جديد . فتطلعت فيفيان حولها ورأت فتاة في عمرها تقريباً تقف عند الباب .

وهتفت السيدة كارشلتون .

ـ حبيبتي كارا ، تعالي واجلسي معنا .

وبعد تردد قصير تقدمت الفتاة نحوهم .

حتى لو لم تتمتع كارا ميتلاند بقامة متناسقة وملامح كلاسيكية لكانت استرعت الانتباه ، فألوانها تركيبة نادرة من الشعر الأسود والعينين الزرقاوين والبشرة البيضاء العاجية يبرز مفاتنها فستان مفصل كثوب اغريقي تاركاً كتفاً عارياً مشدوداً عند الخصر . فيما اظافرها الطويلة مطلية بطلاء أحمر فاقع .

لم تبتسم كارا وكانت في صوتها نبرة سخرية أو عداء . أحست فيفيان بمدى انعدام اللون في شعرها الأشقر وفستانها الباهت أزاء جمال كارا المفعم بالألوان .

بعد أن جلست كارا الى جانبهم قالت السيدة كارشلتون لفيفيان :

ـ يا عزيزتي ، لا بد انك وكارا في العمر ذاته ؟

فسألتها فيفيان :

ـ هل تقيمين في الملايو منذ مدة طويلة ؟

اجابت الفتاة الأخرى :

ـ منذ ستة أشهر . امضيت معظم حياتي في الترحال . بعد فترة يكتشف المرء ان الأماكن تتشابه كثيراً . . . وفي النهاية يصبح الأمر مملاً .

نظرت السيدة كارشلتون الى كارا وقالت :

ـ يفترض في سنّك أن تكون الحياة مغامرة مليئة بالفرص والتجارب .

فنظرت اليها كارا بازدراء وقالت ببرودة :

ـ انت دائماً مثالية يا مادج .

فقالت السيدة كارشلتون ببعد نظر :

ـ ستغيّرين رأيك عندما تعرفين الحب .

فلفّت كارا ساقيها وأخذت تراقب حذاءها الفضي . وسألت بتهكم :

ـ ولمن تقترحين ان امنح قلبي الفتي ؟ لأحد مرؤوسي والدي المندفعين ؟ ان رواتب الضباط الصغار ضئيلة جداً للأسف ، ولا أريد الحرمان في حياتي .

طقطقت مادج بأسنانها وقالت :

ـ هناك بعض العزّاب المناسبين في موبينغ يا عزيزتي ، الدكتور سترانسوم مثلاً . فهو وسيم جداً وأعتقد ان دخله جيد .

فضحكت كارا :

ـ طوم متزوج من عمله يا مادج . واذا نزل يوماً من عليائه فسيكون من أجل فتاة جدية لا تمانع في أن تتقاسمه مع مجموعة من الأهلين المرضى .

نفضت رماد لفافتها ثم أشعلت لفافة أخرى . وتابعت قائلة :

ـ اني اتساءل أحياناً اذ كان طبيبنا المحترم يشكو الوحدة فعلاً . فقد يكون مسلياً اكتشاف ذلك .

فشرحت السيدة كارشلتون لفيفيان :

ـ الدكتور سترانسوم شاب صارم جداً وهو يمارس الطب في الحي الصيني . ولسبب ما يفضل المرضى الوطنيين على الأوروبيين .

فأجابت :

ـ لقد التقيته وفهمت انه كان صديقاً لعرابي .

فنظرت اليها المرأتان باهتمام مفاجيء وسألتها مادج :

ـ بحق السماء ، أين التقيته ؟ ظننت انك وصلت اليوم ؟

ـ كان في الطائرة القادمة من لندن الى سنغافورة . وجلسنا في مقعدين متجاورين .

فتبادلت المرأتان النظرات ، وسألت كارا :

ـ ما رأيك فيه بعد هذه الرفقة ؟

ـ تبادلنا حديثاً مقتضباً . كان يقرأ معظم الوقت .

فعلقت كارا وفي عينيها الزرقاوين لمعة استمتاع :

ـ تصرفه نموذجي . فلو اضطر سترانسوم الى الاقامة في جزيرة خالية برفقة فينوس لأبقى أنفه مدفوناً في كتاب علمي

وأضافت السيدة كارشلتون :

ـ الآنسة كونيل التقت جوليان أيضاً في طريقها من سنغافورة . وهو الذي رافقها الى هنا هذا المساء .

فقالت كارا بعدم اكتراث :

ـ حقاً ؟ من نقيض الى آخر . فجوليان حسّاس بقدر ما سترانسوم حصين . لا تدعي سحر جوليان يجرفك يا آنسة كونيل فانه لا يصدق البتة .

اثناء اجتيازهم البهو وخروجهم الى الهواء الطلق ، قالت فيفيان لجوليان :

ـ لم اكن ادرك مدى اختناق الجو في الداخل .

ـ هل ضجرت ؟

ـ ولماذا اصاب بالضجر ؟ كم هي جميلة الآنسة ميتلاند . اتساءل كيف تحافظ على بشرتها في هذا المناخ .

ـ انك اول امرأة تتفوه بكلمة طيبة بحق كارا في غيابها . جميعهنّ حسودات ويستمتعن بتهشيمها .

ـ لا بد أنّ يكون ذلك صعباً . لم أر في حياتي أحداً في جاذبيتها .

ـ إنها فعلاً فاتنة . انتظري حتى تريها في نوبة غضب ، فتحت هذا القناع يختفي مزاج هرة متوحشة .

ثم أمسك بيدها وقال بنعومة :

ـ لا شك أن وجودي أمس في سنغافورة كان ضربة حظ .

سحبت فيفيان يدها بلطف . سارا بصمت فتساءلت متضايقة عما

اذا كان رفضها المهذب قد أغضبه .

سألها :

ـ هل حذرك أحد مني ؟

ـ بالطبع لا . لماذا تسأل ؟

ـ انها مجرد فكرة .

ـ هناك شيء لا بد أن أقوله لك . لا بد انك لاحظت اختلافاً في شخصيتي وسبب ذلك انني انسانة غير معقدة . كانت حياتي ضيقة المجالات و . . .

وتوقفت بحثاً عن الكلمات الملائمة لشرح مشاعرها . فتابع جوليان عنها :

ـ . . . ولست معتادة على تشابك الأيدي مع الغرباء ، أليس كذلك ؟

احمرت وجنتاها ببطء وحمدت ربها على ظلمة السيارة وأضافت :

ـ لست متأكدة من انني أريد تغيير نفسي .

راقبته يبتعد في سيارته ، ثم اجتازت كوخ الحارس الهاجع وأطفأت نور الشرفة وتسللت الى غرفتها . كانت كيم ملتفة على نفسها على سرير ضيق خارج الغرفة ، ومع ان فيفيان لم تشك مطلقاً بمخاوف ليلية إلا انها اطمأنت الى وجود الوصيفة بجوارها .

فتحت فيفيان عينيها ونظرت بحيرة الى السقف غير المألوف . ثم تذكرت أين هي وقذفت الغطاء بعيداً . وضعت قدميها على الأرض وهي تتلمس مداسها . كانت الغرفة تسبح في ظلال خضراء ، وحالما رفعت الستائر المسدلة تدفقت أشعة الشمس المتوهجة في صبح استوائي عبر النوافذ .

الينابيع صامتة والحوض يتألق في أشعة الشمس الصباحية . وبينما كانت تجمع بعض البتلات المخملية البيضاء التي وقعت من شجرة الياسمين خلال الليل سمعت صوت طرطشة ماء على مقربة

منها . تذكّرت حوض السباحة وتساءلت عمن يأخذ غطسة مكرة . عبرت الممر وحديقة العشب الى منصة القفز . كانت دائرة الأمواج تتسع تحت الخشبة العليا لكن الحوض بدا خالياً للوهلة الأولى . ثم لفت انتباهها لمعان المعدن ورأت ان أحداً قد ترك علبة سجائر معدنية على العشب .

سمعت صوتاً في الطرف الآخر من الحوض فاستدارت لترى رأساً داكناً يطفو ثانية ليختفي مجدداً . وبعد أن حددت المكان ، تمكنت من رؤية شكل أسمر غامض يتجه نحوها . ولدى اقترابه عرفت انه رجل . وقبل وصوله الى الحافة بمسافة قصيرة ارتفع الى سطح الماء وأمسك بمقبض الحديد وتأرجح الى الأرض المبلطة . انه الدكتور سترانسوم .

حدّق احدهما في الآخر دقيقة طويلة وبدهشة متبادلة . ثم ضاقت عيناه غضباً وسألها :

ـ بحق السماء ، ماذا تفعلين هنا ؟

ـ انني . . . انني أقيم هنا ، ماذا تفعل أنت ؟

ـ أليس هذا واضحاً ؟ ماذا تعنين بأقيم هنا ؟

فقالت ملسوعة بترحيبه الخشن :

ـ هذا هو بيتي الآن . السيد كاننغهام تركه لي .

فمسح الماء المنساب على جبهته وقال بجفاء :

ـ يبدو انني اتطفل . كان كاننغهام قد سمح لي باستعمال الحوض . لم أكن أعرف أن المالك الجديد قد وصل . لن أتطفل مرة أخرى .

وقبل أن تتمكن من الرد عليه أخذ علبة السجائر ومشى نحو الشجيرات .

ـ دكتور سترانسوم !

فاستدار وكان جسمه الطويل القوي العضلات يتألق . تقدمت فيفيان نحوه وقالت بحياء :

ـ ارجوك ، لا تذهب . ليس هناك ما يمنع استمرارك في استخدام الحوض .

وعندما لم يجبها ، تابعت :

ـ السيد كاننغهام كان عرابي . ألم يقل لك انه ترك لي المنزل ؟

ـ لم نبحث الأمر ابداً .

ثم انحرفت نظرته الى نقطة تتعداها . فالتفتت ورأت تشن قادماً عبر العشب وهو يحمل صينية وضعها على طاولة من الخيزران تحت مظلة مفتوحة .

ـ صباح الخير سيدتي . صباح الخير سيدي .

فقالت فيفيان اذ رأت على الصينية ابريق قهوة وفنجاناً واحداً وصحناً من شرائح الأناناس :

ـ صباح الخير تشن . كيف عرفت انني هنا ؟

ـ لم اعرف سيدتي . هذه القهوة كانت للسيد الطبيب .

ـ آه ، فهمت . ارجوك أن تحضر لي فنجان آخر ، ربما استطعت أن أشاطر الطبيب قهوته .

ـ نعم سيدتي .

ـ ألن تجلس يا دكتور سترانسوم ؟

فتردد لحظة ثم جلس قائلاً :

ـ لا بد أن يبدو لك هذا غريباً جداً . وأخشى أن يكون تشن غير مدرك بأن الوضع قد تغير . في مثل هذه الساعة لا يكون حوض النادي مفتوحاً وفي حياة عرّابك اعتدت المرور من هنا للسباحة وتناول فنجان قهوة في طريقي الى العيادة .

فقالت بلطف :

ـ لا ارى غرابة في ذلك . بل يبدو ترتيباً معقولاً جداً ، ولا داعي لايقافه بسبب وجودي هنا .

ثم سكبت القهوة وقدمت له الفنجان .

ـ تناوليه أنت . سأنتظر الفنجان الآخر . هل لي أن أدخن ؟

ـ طبعاً . ليتني عرفت انك كنت صديق عرّابي خلال الرحلة .

أخذت ترشف القهوة الساخنة ثم قالت بتودد :

ـ أخشى ان اكون تصرفت بغباء شديد في رانغون وأعطيت عن نفسي انطباعاً سيئاً . أرجو ألّا تسجل ذلك نقطة ضدي .

وأضافت :

ـ قيل لي انك أحد القلائل الذين عرفوا عرابي عن كثب . واعتقد أن وجهتيْ نظركما كانتا متشابهتين . أريد ان اتصرف بوحي من قناعاته .

قطعت الحديث عودة تشن بالفنجان وبصحن أناناس آخر . ابتسمت له فيفيان شاكرة وعندما غاب قالت بقلق :

ـ لا اظنه يستلطفني .

فقال الدكتور سترانسوم :

ـ لا يعرفك بعد . ها هو سنغ العجوز قادم ، لم يضيّع وقته .

تبعت نظره فرأت صينياً عجوزاً يتطلع بحذر عبر الشجيرات . وبعد استكشاف سريع خرج الى العراء وهو يحمل حقيبة في يد وصرة قماش كبيرة في اليد الأخرى .

ورداً على نظرتها المستفسرة شرح لها الطبيب :

ـ سنغ تاجر متجول ويأتي الى هنا مرة في الشهر . أظنه عرف بوصولك ووضعك على رأس قائمته . هل أتخلّص منه ؟

ـ ارجوك ، لا . اريد ان أرى بضاعته . لماذا كان حذراً الى هذه الدرجة في خروجه من الحرج ؟

ـ لأنه لصّ عتيق ولو رآه تشن لطرده . لا تلوميني إن هو سلبك .

وضع الصيني أمتعته على العشب ، على بعد خطوات منهما ، وتقدم وهو ينحني بتذلل ، وابتسامته العريضة تكشف أسناناً نافرة ملبّسة بالذهب .

ـ صباح الخير سيدتي . صباح الخير سيدي . هل ترغبين في رؤية أغطية للطاولات وعاجاً وبورسلين وملبوسات نسائية جميلة جداً ؟

انها رخيصة جداً ونوعيتها ممتازة .

فقالت فيفيان متجاهلة نظرة الطبيب المستمتعة بسخرية :

ـ نعم ، أرجوك .

جلب سنغ حقيبته وفتحها عند قدميها . في الصرّة أغطية طاولات مطرزة وبيجامات حريرية زاهية الألوان وقمصان من النايلون ومناديل مطرزة باليد . اما الحقيبة فأحتوت على مجموعة من علب صدفية وتماثيل عاجية وحلى فضية وزينة صينية رائعة التلوين .

كان سنغ بائعاً خبيراً يعرف أن السيدات الانكليزيات يملن الى شراء ما يفوق امكانياتهن . وبما ان هذه الآنسة الشقراء الشعر قريبة السيد المرحوم كاننغهام فلا بد أنها ثرية جداً ولن تعترض على رفعه أسعاره بضعة دولارات . وبعين حذرة على الدكتور ، أخرج أجود أنواع بضاعته وعرضها قائلاً :

ـ اتعجبك هذه ؟ انها من النايلون الاميركي . جميلة جداً ، هه ؟

فهزت فيفيان رأسها نفياً وحاولت ألّا يحمر وجهها . ثم سألت بعجل وهي تشير الى سترة من الحرير . كان الحرير بخضرة شاحبة ومطرزاً بشكل رائع بالطيور والأزهار ، قبته ضيقة ، على الطراز الامبراطوري الصيني القديم ومربوطاً من الأمام بحزام حريري .

فسألت :

ـ هل لي ان اجرّبه ؟

ـ بالتأكيد ، بالتأكيد .

أدخلت فيفيان ذراعيها في الكمين الواسعين ولمست التطريز الرائع بأناملٍ هيّابة . كان معطفاً يلائم أميرة .

ـ بكم هذا ؟

فراح سنغ يسرد حسنات المعطف قبل أن يقول في النهاية بأن ثمنه خمسون دولاراً .

فسألت الطبيب :

ـ كم يساوي هذا المبلغ بالعملة الانكليزية ؟

- حوالي خمسة جنيهات ونصف .
- اذن ، سآخذه .
وبرغم محاولات سنغ لحملها على رؤية ما تبقى من الأشياء ، أقنعته بانها أنهت مشترياتها ودخلت البيت لتأتي بالمال .
ما أن رحل البائع الماكر ، حتى أعلن الدكتور سترانسوم ان عليه الذهاب الى العيادة فسألته :
- ستستمر في استعمال الحوض أليس كذلك ؟
- اذا كانت تلك رغبتك .
ودفعها دافع لم تتمكن من تحديده الى مد يدها للمصافحة . ولبرهة شدت اصابعه الرشيقة السمراء على يدها بقبضة قوية مؤلمة . ثم رحل .

بعد الغداء قالت فيفيان انها تريد الذهاب الى المدينة للتسوق ، فانحنى تشن وقال :
- سأجلب السيارة . ربما كان من الأفضل أن ترافق كيم سيدتي لئلا يطلب الباعة أسعاراً باهظة .
- نعم . فكرة جيدة . اغلب الظن انها تعرف أفضل المحلات .
بعد نصف ساعة ، أوقف تشن السيارة في وسط المدينة وفتح لها الباب قائلاً :
- سأنتظر هنا حتى تعود سيدتي .
- قد يستغرق ذلك وقتاً طويلاً . خذ السيارة الى البيت يا تشن وسأعود برفقة كيم في عربة .
فرفض تشن قائلاً :
- ليس من المعتاد ان تركب السيدات الانكليزيات في هذه العربات .
- ولم لا ؟ كل الآخرين يفعلون ذلك .
- العربات ليست دائماً نظيفة . سأنتظر .

فردت بحزم :
- ولكنني أريد الركوب في عربة . انها تبدو نظيفة بما فيه الكفاية ، كيم يمكنها اعطاء التعليمات للسائق .
فقال بصوت خال من أي تعبير :
- كما تريد سيدتي .
فأكدت له :
- لا تقلق . سنكون في المنزل وقت تناول الشاي . تعالي يا كيم .
طوال الساعة التي تلت استكشفت فيفيان السوق بينما كانت وصيفتها الصغيرة تعدو وراءها كحارس متيقظ .
لم يكن للحوانيت نوافذ بل كانت تطل مباشرة على الطريق وبضائعها تنتهك الممر . دهشت فيفيان لمرأى علب عرض للمجوهرات في جانب من الحانوت ونحّاساً يضرب الأوعية والمقالي في الجانب الآخر . كانت مخازن الحرير في معظمها تخص هنوداً يقفون في المدخل ويسحبون بضائعهم لعرضها على المارة . وحالما يرون سيدة انكليزية يرمون عليها ثوباً من القماش أو قطعتين من النايلون ويثرثرون برشقات من الكلام ثم يرفعون أكتافهم تعجباً وازدراء عندما ترفض الشراء وتتابع طريقها .
فجأة شعرت بلمسة خفيفة على ذراعها ورأت كيم تدلها على محل على الرصيف الآخر .
- سيدتي . هذا جيد .
واذ تذكّرت ما قاله لها تشن بأن الوصيفة ستجنبها السلب ، تبعت الفتاة الصينية الى المخزن المختار ، وابتاعت بارشاد منها عدة قماشات للفساتين أخذتها الى عند الخياطة . وبعد فترة وجيزة كانت كيم مثقلة بالطرود فيما حملت فيفيان طرداً يحتوي ثوباً للسباحة وعلبة للماكياج . وباحساس خفيف بالذنب ، أدركت انها صرفت مبلغاً كبيراً من المال . لكن كل شيء كان في غاية الرخص وهي لم تجلب معها الا القليل من انكلترا بحيث وجدت مبرراً لهذا التبذير الرائع .

وما أن خرجتا من مخزن بائع الأحذية حتى سمعتا صوت سيارة في الشارع . ورأت فيفيان جوليان يبتسم لها من سيارته .

هبط من السيارة واتجه نحوهما قائلاً :

ـ مرحباً . كنت ذاهباً لأراك . هل أوصلك الى البيت ؟ ماذا كنت تفعلين ؟ تبتاعين المدينة كلها ؟

ـ تقريباً ، لكنني اعتقد اننا بذّرنا بما فيه الكفاية ليوم واحد . ارحب بالعودة في السيارة . فحجارة الرصيف هذه حارة كالجمر .

فقال بسعادة :

ـ جيد . ادخلي . سأضع أغراضك على المقعد الخلفي . ولكن أين سيارتك ؟ هل ينتظرك خادمك الأول في مكان ما ؟

ـ كلا . ارسلته الى البيت . كنا سنعود في عربة لو لم يصادف مرورك من هنا .

فقال بصوت بدت عليه الصدمة لدرجة ان فيفيان قررت الا تطلعه بانها ركبتا احداها بعد الظهر :

ـ يا الهي ، لا يمكنك استخدام هذه الأشياء التنة .

ولدى اجتيازهم سوق السمك لمحت قامة طويلة تقف عند المنعطف . كان الدكتور سترانسوم . وعندما مروا من امامه ابتسمت له ولوّحت بيدها لكنه لم يرد التحية فتساءلت بانزعاج عما اذا كان تقصد ذلك أم انه لم يرها ؟

٣ ـ المدينة تضج بالأطفال . طفل هندي يلهو تحت عجلات عربة . فجأة رأت فيفيان سيارة مسرعة آتية . تأرجح الطفل ثم أسرع الى الأمام . . . صرخت مذعورة واندفعت وسط الطريق . . .

في نهاية اسبوعها الأول في بيت الينابيع السبعة ، كانت فيفيان قد ألفت الجوّ تماماً . ولأول مرة في حياتها الراشدة شعرت باطمئنان متزايد . والغريب ان اقتصار اقامتها في الملايو على ستة أو سبعة اسابيع ، على الأكثر ، لن يزعجها ، فالحياة في بريطانيا ومشروع العودة اليها بعيدان جداً لانهماكها بالحاضر .

كل يوم كانت تبرز فيه اهتمامات جديدة . زارت القرية الصغيرة الملحقة بالقصر والتي سبق وحدثها عنها جوليان . زارتها برفقة تشن الذي اكد لها أن جميع المستأجرين هم سجناء سابقون أو معاقون كانوا يتسولون لقمة العيش .

أثارت زيارتها هذه دهشة السكان الذين تجمهروا خارج بيوتهم ليحدقوا اليها صامتين ومتيقظين في البداية ثم متهامسين مرتاحين في النهاية .

وسألت تشن :

ـ ماذا سيحل بهم عند بيع الأملاك ؟

هز تشن كتفيه قائلاً :

ـ لا يمكن الجزم . اذا كان المالك الجديد رجلاً قاسياً ، سيعودون الى المدينة والى السرقة والتسوّل .

ـ ألا يمكنهم البقاء هنا ؟ انهم لا يزعجون احداً .

فقال باقتضاب :

ـ ليس جميع الرجال كالسيد كاننغهام . فالأرض غنيّة ويمكن زرعها . والمحاصيل تدر المال الوفير .

في المساء جلست على الشرفة تفكر في القرية وبما ستؤول اليه مع المالك الجديد . ربما استطاعت اتمام صفقة البيع شرط موافقة المالك على بقاء القرويين . لقد أخبرها السيد آدمز انه مخوّل بدفع فواتير البيت حتى يتقرر مصير الملكية . وتساءلت بقلق ، عمّا سيحدث بعد ذلك ؟ فالمال الذي تركه العراب جون لن يغطي نفقات بيت كهذا وليس لديها امكانية للحصول على المزيد منه . اذن لا مفر من بيع البيت . ما زال الغموض يكتنف القضية برمتها .

أذنت ساعة الغروب وكانت تنظر الى الهضاب البعيدة مستغرقة في التفكير حين رأت بقعة سوداء في السماء تتجه نحو البيت . وفجأة تحوّلت الغيمة الى عدة تشكيلات بدت كالخيوط المتموجة .

وقال تشن من ورائها فجأة :

ـ الثعالب الطائرة آتية .

انتفضت فيفيان . فتشن يرتدي باستمرار حذاء من المطاط ويتجوّل دون أن يحدث ادنى صوت ففاجئها . سألته بفضول :

ـ الثعالب الطائرة ؟

ـ لها أجنحة الوطواط الكبير ورأس الثعلب . لقد بدأ الموسم وسوف تطير كل ليلة فوقنا لتنهب بساتين الفاكهة . سأجلب المنظار سيدتي .

ودخل البيت فيما أخذت هي تراقب اقتراب السرب الطويل . وفي دقائق معدودة كان الفوج الأول المؤلف من مئات الأشكال المجنحة السوداء يشق سماء الغسق فوق رأسها . استطاعت أن ترى بالمنظار ان هذه الكائنات شديدة الشبه بالثعالب وذات أجنحة جلدية ضخمة .

قالت بعدما تلاشى آخر سرب في الظلال السوداء :

ـ ما أروع المنظر .

ـ سيدي كان يحب مراقبتها ايضاً .

ولأول مرة بدا تعبيره ودوداً . فسألته :

ـ تشن ، هل اللغة الملاوية صعبة ؟

فأجاب تشن :

ـ انها لغة يصعب تكلمها بشكل جيد . كان سيدي يجيدها وكأنه نشأ هنا ، كما كان يجيد اللغتين ، التاميلية والكانتونية . كان عالماً عظيماً يعتقد انه لو كان البشر يتحدثون جميعاً بلغة واحدة لما كانت هناك حروب .

ـ هلا علمتني قليلاً منها ؟

ـ لا ضرورة لسيدتي . الكثيرون يعرفون الانكليزية وبامكاني أن أنوب عنها .

ـ اعرف . لكني احب أن أقول بعض الأشياء بنفسي . كيف نقول شكراً ؟

ـ يجب أن تقولي « تريما كاسيه » ، (وغمرت وجهه الشاحب ابتسامة دافئة للغاية) . السيدة الصغيرة هي فعلاً ابنة السيد . سيشرفني أن أعلمها ما ترغب في معرفته .

منذ ذلك المساء طرأ تغيّر ملحوظ في سلوك الخادم الأول نحوها . اذ صار يبادر الى تزويدها بالمعلومات بدلاً من الاكتفاء بالاجابة على اسئلتها بتهذيب . لم يعد يرمقها بتحفظ وشك . أخذ يتمتع بروح فكاهية فان ضحكت لتعليقاته اللاذعة ، لمعت عيناه وانقلبت زاويتا فمه الى أسفل كمن يحاول كبت ابتسامة .

وفي نهاية الاسبوع ، وفيما كانت فيفيان تجتاز الشارع لاحضار حذاءها من عند صانع الأحذية ، رأت طفلاً هندياً يلهو تحت عجلات احدى العربات الواقفة . كانت المدينة تعجّ بأطفال ينبشون الأقنية أو يلعبون . . . وفجأة رأت فيفيان سيّارة مسرعة آتية .

تأرجح الطفل على ساقيه الصغيرتين البدينتين ثم أسرع الى الأمام . صرخت مذعورة ثم تركت حقيبتها ودفعت امرأة هندية

متمهلة كانت تقف امامها وانطلقت الى وسط الطريق حيث سمع صرير فرامل وانسحاق دواليب وتطاير الغبار .

جرى كل هذا بلمح البصر . حملت فيفيان الطفل بين ذراعيها وهي لا تعي ماذا حدث . وقبل أن تستجمع أفكارها رأت نفسها محاطة بجمهور من الاسيويين وهم يصرخون ويؤشرون .

بدأ الطفل يصرخ فأخذت تهدهده على كتفها وهي تهمس في اذنه كلمات رقيقة مبهمة . وفجأة شقت إمرأة صينية مرتاعة طريقها وسط الحشد وانتزعت الطفل من فيفيان . ثم بدأت تولول بأعلى صوتها . وفوراً أصبحت محط الاهتمام ووجدت فيفيان نفسها مدفوعة الى جانب . فتذكرت حينئذ بأنها أوقعت حقيبتها في مخزن الأحذية فشقت طريقها بعيداً عن الجمهور الصاخب .

وبعد أن مر الخطر شعرت بالغثيان وبألم في قدمها اليمنى . ولم تكد تخرج من الحشد ، حتى رأت تشن يسرع نحوها هاتفاً بقلق :

ـ هل اصاب سيدتي اذى ؟

ـ لا ، لا . انني بخير . الطفل هو الذي كاد يقتل . كان السائق يسير بسرعة جنونية .

ـ لكن سيدتي مصابة بجرح . انظري . . . هناك دم .

فنظرت فيفيان الى أسفل ورأت فستانها ملتصقاً بساقها وبقعة الدم الرطب تبدو صارخة على الثوب القطني الباهت .

شدّت قبضتها لئلا يغمى عليها أمام الناس وقالت بصوت مختنق :

ـ انه مجرد جلف . كاحلي يؤلمني قليلاً . اظن من الأفضل أن نعود الى البيت .

ـ لنرى الطبيب أولاً . السيارة قريبة ومعي حقيبة وحذاء سيدتي .

وقال تشن :

ـ العيادة مفتوحة . اذا كان بامكان سيدتي أن تمشي فلندخل ليطهر الطبيب الجرح .

ولدهشتها رأت انهما اصبحا في شارع آخر اذ لم تشعر بتحرك السيارة .

ساعدها تشن على الخروج وقادها عبر ممر مقنطر وصعدا بضع درجات . جلست فيفيان على مقعد بينما كلّم تشن فتاة الاستقبال فأومأت ودخلت غرفة داخلية . ثم قال تشن :

ـ سيعاين الطبيب سيدتي حالما ينتهي من هذا المريض .

كان قلبها يطرق بعنف بين ضلوعها وبدا كل شيء مغشياً . ثم انقلبت الغرفة رأساً على عقب . واذ تذكرت درساً أولياً في الاسعاف انحنت الى الأمام حتى لامس رأسها ركبتيها . ومن بعيد سمعت تشن ينادي طالباً النجدة ثم أظلمت الدنيا .

عندما فتحت عينيها كانت مستلقية على ظهرها وأحست بشخص يفحص نبضها .

ـ ظلي مستلقية يا آنسة كونيل . ليس هناك ما يقلق . لقد غبت عن الوعي ثانية أو ثانيتين . لا شيء مهم .

بدا الصوت أليفاً . واذ رفعت نظرها ، رأت الدكتور سترانسوم واقفاً بجانبها .

حاولت الجلوس لكنه دفعها برفق الى الوراء قائلاً :

ـ ليس الآن ، ارتاحي فترة . اريد القاء نظرة على الجرح .

فسألته :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

ـ هذه عيادتي خذي ، اشربي هذا . سيزيل عنك الشعور بالضعف .

وضع يده تحت كتفيها ورفع كأساً الى شفتيها . فرشفت فيفيان السائل طائعة وقالت بحيرة :

ـ لا اعرف لماذا غبت عن الوعي . هذه أول مرة يحدث لي هذا .

ـ كثيراً ما يغيب الناس عن الوعي في المناخات الحارة . قال تشن

ان حادثاً وقع . هل تذكرين ما حدث ؟

ـ اجتاز طفل الطريق وكادت ان تدهسه سيارة .

ـ فهمت . وكيف دخلت فيه ؟

فقالت بتهرب :

ـ انعطفت السيارة و. . . لا بد انني كنت في طريقها .

وبدأت تتمنى لو انها لم تتصرف بهذا الاندفاع . فمن المرجح ان السائق كان استطاع تجنب الطفل دون أن تندفع الى تحت عجلاته محدثة مشهداً مثيراً .

ـ أخشى ان يتضرر فستانك اذ سأضطر الى قص قطعة منه . فالجروح تجف بسرعة في الحر .

ـ لا يهم فهو فستان عتيق ولدي فساتين جديدة الآن .

ثم رفعت رأسها لترى ماذا يفعل .

ـ من الأفضل ألا تنظري فالمشهد ليس جميلاً لكنه ليس سيئاً كذلك .

ـ لا أخاف من الدم . أفضل الجلوس قليلاً اذا أمكن .

فنظم الوسادة ورفعها قليلاً إلى أعلى .

استجمعت قواها وجفلت حين سلخ قطعة الفستان القطني المشرب بالدم عن المكان المجلوف .

ـ أحسنت يا فتاة . انه جلف بشع ولكنه لن يستدعي التقطيب . ولن يترك أثراً . . . وآلان ، لنلق نظرة على قدمك . أخشى ان تكوني قد لويت كاحلك قليلاً .

قال ذلك وهو ينزع حذاءها ويجسّ الورم في قدمها ، وأضاف :

ـ بل لسوء الحظ ، ولكنك اذا ارتحت يومين فسيكون على ما يرام .

جلست فيفيان وأنزلت قدميها عن حافة سرير الفحص . افترضت حينما عرض مساعدتها انه قصد ان تتكىء على ذراعه ولكن ، لدهشتها ، لف ذراعاً حول خصرها والأخرى حول ركبتها

وحملها كما لو كانت طفلة . فاعترضت بارتباك :

ـ ليس هذا ضرورياً . . . استطيع القفز على قدم واحدة بسهولة .

فقال وقد امتعه منظر وجهها المندهش :

ـ لا اريدك ان تسقطي على الدرج وتلوي كاحلك الآخر . هلا فتحت الباب ؟

فمدت فيفيان يدها وفتحته :

كان تشن قرب الممر . فسأل قلقاً :

ـ هل تشعر سيدتي بتحسن ؟

فأكدت له فيفيان :

ـ أفضل بكثير .

وضعها الطبيب بعناية في السيارة وكلم تشن بالكانتونية . فسألته :

ـ ماذا قلت له ؟

فأجاب باقتضاب :

ـ كنت اؤكد له ضرورة عدم تجاوزك أوامري بالراحة طوال الأربع وعشرين ساعة المقبلة . سأمر عليك في المساء لتغيير الضماد .

تجاهلت نصيحة الطبيب بملازمة الفراش فتناولت غداءها على الأريكة الهزازة في الفناء . وعندما اعترض تشن طلبت اليه الا يقلق . ان الجلوس في ظلال شجرة الياسمين أمتع بكثير ولا شك من ملازمة غرفة النوم . وعندما تحقق تشن أن لا سبيل لاقناعها ، رفع يديه وقال ان سيده الراحل كان أيضاً رجلاً عنيداً .

ما أن سمعت السيدة كارشلتون بالنبأ حتى أسرعت لتعود فيفيان . حينما دخلت وجدت سيدة المنزل منهمكة في لعبة ورق مضحكة مع ثلاثة من خدمها : تشن وكيم وصغير الخدم .

وقالت مادج مسرفة في العواطف وهي تجتاز الفناء مستعجلة :

ـ يا طفلتي العزيزة ، لقد هالني نبأ الحادث . كيف تشعرين ؟ هل هناك ما يمكنني أن افعله ؟ يفترض أن تكوني في سريرك ولا شك ؟

كان ثاني الخدم قد استقبلها لوجوده على الشرفة وفاجأها ان تجد فيفيان بهذا الانشراح . علقت فيفيان بخفة :

ـ في السرير ؟ لكنني لويت كاحلي وجرحت قليلاً . . . هلا جلست ؟

قبلت السيدة كارشلتون الدعوة بابتهاج . فحالما سمعت بالحادث ، أدركت انه الحجة المثالية لتزور بيت كاننغهام الغامض . فقد كانت تتوق الى نقل اكتشافاتها الى رواد الحفلة التي ستذهب اليها في ذلك اليوم .

قالت وهي تدرس الفناء باهتمام :

ـ ما أروع هذا المكان . اذن هذه هي الينابيع الشهيرة .

وأضافت :

ـ لقد قمت بعمل شجاع . هل تؤلمك قدمك كثيراً ؟

ـ لا ، بالكاد ، شكراً على اهتمامك . الدكتور سترانسوم يقول انني سأكون على اتم ما يرام خلال يومين . أما هذا فمجرد جلف (وأشارت الى الضماد) .

فقالت السيدة كارشلتون :

ـ اذن الدكتور سترانسوم يعاينك . أظنه كفوءاً على الرغم من سلوكه الغريب .

دخل تشن بصينية الشاي وتوقف الحديث بينما صب الشاي .

بعد انسحابه قالت السيدة كارشلتون :

ـ يبدو خادمك الأول فائق الكفاءة .

ـ نعم . انه يدير المنزل بفعالية . وقد وظّف وصيفة حين علم بقدومي . لا أدري كيف كنت سأتدبر أمري لو لم يكن أحدهم يتكلم الانكليزية .

فقالت السيدة كارشلتون وهي تتقبل سندويشاً آخر بالخيار :

ـ بما اننا نتحدث عن الخدم ، هل تمانعين في أن أسدي اليك نصيحة ؟

ـ بالطبع لا .

ـ كونك حديثة العهد في الملايو ، فانت غير مطلعة ، بالطبع ، على الكثير من عاداتنا وعلى الأعراف المتبعة هنا . اني لمتأكدة من انك تدركين أهمية المحافظة على المقام البريطاني سيما وان البلاد غير مستقرة حالياً ، وان هؤلاء الارهابيين الأوغاد يسعون جهدهم لتدمير نفوذنا .

ـ نعم ، ولكنني بالفعل لا ارى . . .

وتابعت السيدة كارشلتون بتملق :

ـ الناس سريعون في اساءة تفسير الأخطاء البريئة . وفي مكان صغير كموبينغ فان كل حركة تلحظ وتناقش . وأنا أقول ان الثرثرة تسبب نصف مشاكل العالم .

لم تكن لدى فيفيان أدنى فكرة عما تقصده ضيفتها لكنها قررت أن تترك العظة تأخذ مجراها . وتابعت السيدة كارشلتون بدون أن تلاحظ توتر فيفيان :

ـ لا اريدك ان تسيئي الفهم فتعتقدي ان لي موقفاً سلبياً من الصينيين والملاويين . ولكن عندما تقضين في الخط الاستوائي ردحاً من الزمن ستعلمين ، يا عزيزتي ، انه ينبغي التقيد بالأعراف ، فهذا يسهل الحياة للطرفين .

فسألت فيفيان فجأة ، وقد نفد صبرها ، من هذه المقدمة المسهبة :

ـ ما الذي تحذرينني منه بالضبط يا سيدة كارشلتون ؟

ـ الواقع انه من الأفضل الحفاظ على بعض الحواجز . فالشرق شرق والغرب غرب . . .

فقالت فيفيان بشكل قاطع :

ـ أعرف ، فقد سبق لجوليان أن أطلعني . هل تتناولين المزيد من الشاي ؟

ـ شكراً ، انه منعش للغاية .

ثم هيأت السيدة كارشلتون نفسها لمتابعة عظتها . . . لم تكن امرأة حساسة ولم يخطر لها ان الانتقادات قد لا تجد قبولاً بالرغم من حسن نيتها .

فقالت فيفيان بنبرة فجة :

ـ هلا دخلت صلب الموضوع ؟

فارتبكت السيدة كارشلتون برهة اذ كانت تفتخر بانها في منتهى اللباقة وتكره ان يستعجلها أحد .

ـ حسناً ، صادف ان رأيتك في المدينة . كنت تركبين عربة مع وصيفتك . أسمح لنفسي أن أقول انك فعلت ذلك لأنه جديد عليك . لكن تصرفك أقلقني وأصارحك يا عزيزتي ، ان استعمال العربات لا يليق مطلقاً بالأوروبيين .

ثم وضعت فنجان الشاي على الطاولة ومسحت زوايا فمها الصغير بمنديل .

فقالت فيفيان بنبرة ناعمة :

ـ كانت كيم تساعدني في التسوّق واستخدمنا العربة لكثرة الحاجيات .

ـ فهمت . كانت غلطة طبيعية واني متأكدة من انك لا تنوين تكرارها . لقد قيل لي ان بعض عائلات الجيش . . . الصفوف الدنيا منها . . . تستخدم العربات وتسافر بالباصات المحلية ، لكنها لا تختلط معنا . الضباط وحدهم يسمح لهم بدخول النادي .

ـ لماذا الضباط فقط ؟

رمقت الزائرة أظافرها الحمراء بتعبير من يواجه سؤالاً ليس من رد رقيق عليه :

ـ كلنا نعرف ان الطبقات الاجتماعية غير محددة بالوضوح الذي

كانت عليه قبل الحرب ولا شك ان هذا امر جيد من بعض النواحي . ولكن لا يسعنا الادعاء بأن التمييز غير موجود . بعض الطبقات السفلى ليست . . .

فقالت فيفيان :

ـ هل هناك أمر آخر تريدين قوله لي ؟

ـ نقطة واحدة . لاحظت انك كنت تلعبين الـ « ماه . جونغ » عند وصولي . اني افهم مدى شعورك بالملل لاضطرارك الى ملازمة المقعد أثر هذا الحادث المؤسف ولكن خذي نصيحة امرأة تفوقك سناً يا عزيزتي ، لا تعاملي خدمك كأنداد لك . انهم يفقدون احترامهم لك .

لم تقل فيفيان شيئاً . وبعد صمت دام دقيقة كاملة بدأت السيدة كارشلتون تتساءل عما اذا كانت قد جرحت شعور الفتاة . فالشباب مرهفو الاحساس .

رنت فيفيان الجرس وقالت :

ـ دعيني أقول لك شيئاً يا سيدة كارشلتون . انا لا اخالفك اراءك الضيّقة والمتعالية فحسب ، بل ليس لدي أية نية للتقيّد بأفكارك حول السلوك المناسب . اذا كانت العربات والباصات تليق بزوجات الجنود ، فهي تليق بي ولن أحلم باهانة وصيفتي بالركوب في عربة منفصلة . وفي الواقع سأكون جد فخورة اذا استطعت كسب صداقة الناس واحترامهم . واذا احتجت لنصيحة حول كيفية التصرّف في موبينغ سأستشير تشن فهو كان على صداقة حميمة بعرابي ولا يسعني التفكير في شخص أفضل منه . وهناك نقطة اخيرة . بما ان النادي غير مفتوح للطبقات السفلى ، كما تسمينها ، فانني أفضل عدم الذهاب اليه . واذا كنت مهتمة بابلاغ اصدقائك موقفي هذا فستوفرين علي مقابلات أخرى من هذا النوع .

بدت السيدة كارشلتون وكأنها لا تصدق اذنيها . ثم ارتسمت تعابير الإهانة والحنق على ملامحها وصاحت بغضب :

ـ انت لا تدرين ماذا تقولين .

فردّت فيفيان باللهجة نفسها :

ـ بل بالعكس اعتقد انني أوضحت رأيي تماماً .

ـ هكذا اذن ! ستسلكين موقف عرّابك المتعالي المتجبر ، أليس كذلك ؟

ثم قالت بسخرية لاذعة :

ـ اذن دعيني أقول لك هذا يا آنسة كونيل . إن المجتمع الانكليزي كان يقاطع عرابك الغالي . لقد تصرف بشكل جعلنا نتحاشى الاختلاط به .

ـ يخيل الي ان ذلك لم يزعجه مطلقاً . ها قد اتيت يا تشن . السيدة راحلة ، فهلا قدتها الى الخارج ؟ مع السلامة يا سيدة كارشلتون . اشك اننا سنلتقي كثيراً . كان لطفاً منك ان تسألي عن صحتي .

التقطت السيدة كارشلتون حقيبتها وقد أصفرت حنقاً وزمت شفتيها المحمرتين وهرعت عبر الفناء . قائلة :

ـ ستندمين على هذا .

لدى عودة تشن طلبت اليه احضار المزيد من الشاي لعدم تمتعها بالأول . وفي الوقت الذي احضر فيه الشاي ، كانت قد هدأت وبدأت تضحك من منظر السيدة كارشلتون في خروجها العاصف كديك رومي مخنوق .

قال تشن وهو يناولها فنجان الشاي :

ـ اصبح لسيدتي عدو ، فالسيدة كارشلتون مستاءة .

ـ مستاءة للغاية . اخشى ان اكون نسيت عادة اللياقة يا تشن . هل فهمت الموضوع؟

اشار بالايجاب قائلاً:

ـ للسبب نفسه الذي من اجله لم يكن للسيد كاننغهام الا بضعة اصدقاء من العرق الابيض .

فقالت بعصبية :

ـ كيف يمكن ان يكون الناس بهذا الغباء! هل يوجد في شعبكم من يحتقرنا ايضاً؟

فأومأ بالايجاب مجدداً :

ـ القلب المتكبر يوجد في كافة الأعراض ، وهو يولد الكثير من المرارة .

ثم ارتسمت ابتسامة دافئة على وجهه وقال بلطف :

ـ حسناً فعل سيدي باختياره السيدة الصغيرة لتستمر على طريقه .

نامت فيفيان ساعة استفاقت بعدها منتعشة . ولم تكد تسرح شعرها وتعيد حمرة شفتيها حتى سمعت سيارة اخرى تصعد الطريق .

وعندما ظهر صغير الخدم اعلن ان السيد باركلي يرغب في رؤيتها .

فقالت فيفيان بحماسة «ادخله» فقد تغيب جوليان مدة يومين افتقدته خلالهما .

حياها وهو يقدم اليها علبة ضخمة من الشوكولاته :

ـ مرحباً ، ما هي قصة الحوادث التي سمعتها؟

ـ ما افخم هذه الشوكولاته . شكراً جزيلاً مع انني لست مريضة بما فيه الكفاية لأستحق هدايا فخمة .

ـ هذا يريحني فقد سمعت قصصاً غريبة عجيبة لكنني قدرت انها مبالغ فيها . اينها الغبية المجنونة ، هل خاطرت حقاً بحياتك من اجل طفل يسيل انفه؟

ثم اخذ كرسياً جلس عليه وقد لفتت نظره رشاقتها . فقال :

ـ كنت آمل ان احتفل بعودتي الى الحضارة . خسارة ، ستجري تومبولا الليلة في النادي وهي ممتعة عادة وربما انتزعت جائزة المائة دولار .

فكرت فيفيان انها عاجلاً ام آجلاً ستخبر جوليان عن شجارها مع

السيدة كارشلتون وانه من الافضل ان تنهي الموضوع فوراً، فقالت:

- لن اذهب الى النادي بعد الآن.

- لماذا بحق السماء؟

- السيدة كارشلتون كانت هنا، حصل بيننا شجار وقلت لها انني لن اذهب الى النادي ثانية.

- مشاجرة؟ مع مادج؟ بأي صدد؟

- جاءت تنصحني كيف علي ان اتصرف خلال وجودي في موبينغ، لكنني لم اوافقها وقلت لها اشياء اغضبتها.

- لم تكوني حكيمة في الاصطدام بمادج فهي وجه ريادي في جاليتنا الصغيرة ويمكنها مضايقتك اذا شاءت.

- ممكن. لكن لست مهتمة بكسب مودة السيدة كارشلتون.

- بأي حال، لا داعي لان تلتزمي كلمتك فكل منا يفقد اعصابه ويطلق من حين لآخر تصريحاً متسرعاً.

- لكنني لم افقد اعصابي وانوي الوفاء بوعدي.

اضافت:

- كانت كذلك فظة للغاية تجاه عرابي.

بدأ صبر جوليان ينفد:

- توقفي يا فيفيان فمن المرجح انها كانت تقول الحقيقة. انت لم تعرفيه شخصياً. لقد كان نزقاً سيء الطباع. الجميع يقولون لك هذا.

فسألته بشكل مباشر:

- هل تعتقد انه كان علي استئجار عربة اخرى لكيم؟

بدا غير مرتاح:

- المجال ضيق لشخصين في عربة واحدة.

تنهدت... انه بارع في التهرب من الاسئلة الحرجة لكنها تريد حسم الموضوع في حال استمرار صداقتهما. قالت بصراحة:

- لقد ابدت السيدة كارشلتون ايضاً بعض الملاحظات المبطنة عن

شبان بريطانيين يغازلون فتيات صينيات لقلة الفتيات البريطانيات. من المعتقد انها شملتك. فاذا كنت تستطيع مغازلة آسيويات، اذن لا مانع لديك ان اصادق تشن وكيم.

فتجهم محياه الوسيم وتمتم بعصبية:

- لماذا لا تستطيع هذه المرأة ضبط لسانها؟ بامكانها ان تجعل ملاكاً ابيض اسود! انا واثق من انك لم تأخذيها على محمل الجد؟ اقصد انني رقصت مع فتيات صينيات في المرقص المحلي انما لم يكن من شائبة في ذلك.

فتنهدت فيفيان وقد ضاقت ذرعاً:

- ألم تفهم بعد يا جوليان بانني احب الصينيين؟ لو كنت مخطوباً الى فتاة آسيوية لما اعتبرتك خارجاً عن المجتمع. لكني لن اغير رأيي بالنسبة الى النادي فاذا كان هذا يحول دون صداقتنا ارجو ان تفصح عن ذلك وسأفهم موقفك. فانت تعيش هنا ولا تريد مصادمة الاوروبيين الآخرين باختلاطك مع شخص يرفضونه.

تجاهل الجزء الأخير من ملاحظتها ثم اخذ يديها وقال مبتسماً:

- لو كنت مخطوباً لصينية فهل ترقصين معي يوم السبت؟

- صعب، فسترافق خطيبتك للرقص.

حاولت سحب يديها لكنه شد قبضته عليهما وقال:

- اذن انا مسرور لانني لست مخطوباً لاحدى جميلاتك الآسيويات. اما اذا اقصوك عن المجتمع فسيكون من دواعي سروري ان اشاطرك اقصاءك. انما من غير المرجح ان تنبذي من الجوقة السعيدة. فقد تنجح مادج في استمالة بعض المسنين ضدك، لكن الجيل الاصغر لن يأخذ الأمر بجدية. والآن لننسى هذه العاصفة في فنجان شاي ولنتكلم عن شيء اهم. هل افتقدتني خلال وجودي في البراري؟

بقي جوليان ساعة ثم اعتذرت فيفيان منه لانها تنتظر وترغب في

الاستحمام وتغيير ثيابها، فودعها بمرح ودعا نفسه لتناول الغداء معها في اليوم التالي لتعجيل شفائها كما قال.

فيما كانت تشرب القهوة، اقتربت سيارة من المنزل للمرة الثالثة خلال اليوم. بدا من صوت المحرك انها بالكاد استطاعت صعود الجزء الصعب من الطريق. توقعت ان تكون للدكتور سترانسوم. فقد بدا لها انه من النوع الذي يحب اقتناء سيارة قديمة حتى وان كان باستطاعته اقتناء سيارة كاديلاك فخمة كالتي يفضلها الصينيون الاثرياء.

اسرع تشن ليفتح الباب. وعندما عاد لم يكن الطبيب وحده بل برفقة عدد من الصينيين الغريبين عنها.

تقدم منها قائلاً:

ـ مساء الخير. كيف حالك؟

ـ افضل بكثير. شكراً.

فقال رداً على سؤالها الصامت:

ـ كانوا يصعدون الطريق فعرضت أخذهم بسيارتي. انهم والدا وجدا الصبي الذي انقذته.

ـ صحيح؟ وماذا يريدون؟

ـ ان يشكروك. لديهم خمس بنات وصبي واحد.

فابتسمت فيفيان للصينيين وطلبت من تشن ان يدعوهم الى الجلوس.

تقدم الصيني واخذ علبة صغيرة وفتحها وقدم لها تعويذة من الجاد معلقة بسلسال ذهبي. وبدا واضحاً من ابتساماته واشارته انه يطلب منها قبول الهدية عربونا لامتنانهم.

فقالت محرجة وهي تنظر الى الطبيب ليساعدها في ايجاد مخرج لهذا الوضع:

ـ لا يمكنني قبول شيء ثمين كهذا.

فقال الطبيب بسرعة:

ـ عليك قبولها لئلا تمسي كرامتهم. الرجل صائغ وقد صنع السلسال لنفسه اما اليشب فلا بد انه كان يخص زوجته.

شكرتهم فيفيان بواسطة تشن، على الهدية واثنت على جمال ودقة الصناعة اليدوية.

بعد انصراف الجميع قال الطبيب:

ـ لم تقولي لي انك انقذت حياة طفل هذا الصباح.

احمر وجهها وقالت:

ـ يجب ملاحقة السائق لتجوله في المدينة بهذه السرعة.

اخذ مقعداً وعدل نور الطاولة بحيث اضاء موضع الجرح ثم قال:

ـ لا بد ان اذنيك تطنان. يخيل الي انك ستكونين الليلة مدار الحديث في النادي.

ازاح الضمادات عن جلدها المنجلف وقال باستحسان:

ـ دمك نظيف اذ لا توجد دلالة على احتمال التقيح. هل حذرتك السيدة كارشلتون من خطر آرائك على السمعة البريطانية؟

ـ اجل، وهددت بقذفي خارج مجتمعها النظيف.

ضحك فبانت اسنانه ناصعة وسط وجهه الأسمر:

ـ كما يقول اهل الملايو «تيدابا» - اي لا تقلقي.

ـ لن اقلق، فأنا ما جئت هنا لأحظى باعجاب اناس كهؤلاء.

ـ لماذا جئت؟

ـ لانفذ رغبة عرابي.

ـ سأترك كاحلك في الوقت الحاضر، قد نتمكن غدا من شد الضماد. هل يؤلمك؟

ـ انه ينبض قليلاً. دكتور سترانسوم. اعرف انك لا تحبذ مجيئي الى الملايو، لكن بما انك كنت صديقاً لعرابي، فأريد منك نصيحة معينة.

ـ ما الذي يدعوك الى الظن باني لا احبذ مجيئك؟

- لقد اوضحت موقفك تماماً.
- قد تكونين مخطوبة؟ هل انت كذلك؟ انك لا تلبسين خاتماً؟ ألست مخطوبة؟ ولا مرتبطة بأحد؟

اثارها كلامه فتوردت بشدة. . انه ماهر في تحويل اي حديث بصورة تناسبه، ونزعته هذه تثير الغضب. قالت بصوت كالح:

- كلا. بأي حال، هذا خارج عن الموضوع.
- صدق ظني بأنك غير مرتبطة.
- ماذا تقصد؟
- اقصد انك لا تبدين ذات خبرة سابقة في التجربة المحمومة المعروفة بالحب. والآن اية نصيحة تريدين؟

افحمها الغضب لبضع لحظات ثم قالت باقتضاب:

- اتعرف لماذا اوصى لي عرابي بكل هذا؟
- كل ما اعرفه هو ان جون لم يكن له اقارب، وافترض انك كنت تمثلين الرابطة الوحيدة بالنسبة اليه.
- لكن كيف تأكد من اني لن اعمد الى بيع الاملاك؟
- لم تبيعيها.
- لقد ارغمت على عدم البيع.
- وما الذي رجح كفة الميزان؟
- نوع غريب من القناعة الداخلية بانه ارادني ان آتي الى هنا. اتظن اني كنت مخطئة؟
- كلا، فلو انه كان يعتزم العكس لباع الاملاك بنفسه واوصى لك بالارباح.

وفكرت، ها هو يدعم قرارها كما فعل السيد آدمز. ثم سألته:

- وما السبب؟ ماذا اعتزم ان يفعل بعد ذلك؟

سار الطبيب الى النافذة واخذ ينظر الى الحديقة المظلمة. قال وظهره اليها:

- عاش جون ثماني سنوات في هذا البيت. كان بطبيعته جوالاً

لكن شيئاً ما شده الى هذا المكان. ربما لم يطاوعه قلبه على بيعه.

قالت لتجس نبضه:

- كان من الأقرب الى المعقول ان يوصي به لك.

التفت اليها فوراً لكن وجهه لم ينم عن اي تعبير. قال بايجاز:

- لدي بيتي الخاص.
- ليتني اعرف ماذا يتوجب علي فعله.
- الجواب بسيط. لماذا لا تسكنين فيه؟
- ليس الأمر بهذه البساطة فعرابي ترك لي مبلغاً معيناً من المال انما لا يكفي لادارة بيت كبير لاكثر من بضعة اشهر. لهذا السبب عارض اقربائي فكرة مجيئي. قالوا اني لن اخرج بنتيجة ونصحوني بالبيع. القضية تحيرني. ليت عمي جون اوضح مقصده في الوصية.

عاد يتكيء على طاولة المكتب وقال:

- انها مشكلة ضخمة بالنسبة الى شابة في سنك الطري.
- كنت آمل ان اجد عندك الحل يا دكتور سترانسوم.

تفحصها بامعان ثم قال فجأة:

- افضل ان تخاطبيني باسم طوم. تحدثت عن اقارب. هل توفي والدك؟

فشرحت له باختصار كيف عاشت مع آل سنكلير ولم تدر انه استشف الكثير من نبرتها الخاوية، وختمت بقولها:

- هناك لوحة لأبي في غرفة الاستقبال، تلك المعلقة على الجدار.
- اجل، رأيتها لكني لم اقرنها باسمه. انصحك بان تتخلي عن هواجسك في الوقت الحاضر، فقد تتوضح القضية من تلقاء نفسها بعد ان تقضي هنا ردحاً.

وافقته ثم غيرت الموضوع بقولها:

- هل تمارس اختصاصك على نطاق واسع؟
- انا لست اختصاصياً بالمعنى الحقيقي. هناك طبيب آخر في البلدة الى جانب الاطباء الأسيويين، الدكتور جيليز يعالج جميع الاوروبيين

تقريباً وانا اعالج الحالات التي لا يستطيع المستشفى استقبالها. اكثر من نصف الحالات التي اعاينها تحدث بلا ضرورة بمعنى انها قد لا تحصل ابداً في البلدان التي تتمتع بمستوى اعلى من النظافة ووسائل الوقاية الصحية.

واضاف:

ـ لقد اطلت الزيارة، يجب ان تأوي الى فراشك. سأمر صباحاً لأعاين كاحلك. سأذهب الآن، لا، لا داعي لاستدعاء تشن فانا اعرف طريقي. تصبحين على خير يا فيفيان.

ـ تصبح على خير يا طوم.

حياها مبتسماً ورحل. بعد قليل رنت الجرس لكيم. ان حديثها مع الدكتور سترانسوم قد ازال بعض الغيوم المستقبلية بشكل ما.

٤ – اخذت تفكر في جوليان. إنها توده كثيراً وتعترف بجاذبيته الشديدة ولكنها لم ترحب ابداً بمحاولاته...

نامت فيفيان تلك الليلة بعمق. وحينما استيقظت وجدت ان التورم زال تقريباً من حول كاحلها وقد عرفت هذا من ارتخاء الضمادات. كما زال الألم. كانت تستلقي بترف على الفراش المطاطي العائم حين جاءتها كيم بشاي الصباح، فأحست بمعنوياتها مرتفعة.

عبرت الفناء وهي تعرج قليلاً وفوجئت بمرأى طوم سترانسوم واقفاً امام النوافير يدخن لفافة. قال حالما رآها:

ـ صباح الخير، جئت لأسبح، وبما اني سأعاين كاحلك ايضاً فقد دعوت نفسي الى تناول الفطور. كيف امضيت ليلتك؟

ـ براحة تامة. شكراً. لم احتج الى حبة المنوم التي وصفتها لي.

ـ عظيم.

ازاح لها كرسياً وجلس قبالتها الى طاولة الفطور. كان يلبس قميصاً ازرقاً يعزز زرقة عينيه. لحظت سرواله القطني الأزرق وهو يرتدي عادة شورتاً كاكياً وجوارب بيضاء طويلة، فسألته:

ـ اهذا يوم اجازتك؟

ـ كلا، فأنا اذهب مرة في الاسبوع الى مأوى الاطفال في منطقة غانا رود واتساءل ان كنت تودين مرافقتي، فالرحلة ممتعة واعتقد انك ستودين المرأة التي تدير المأوى.

ـ يسرني ذلك انما اخشى ان اعرقل عملك؟

- ابداً، يمكنك التحدث مع آنا اثناء معاينتي للصغار. ان ضيوفها قليلون وهي سيدة اجتماعية بطبيعتها. سنغادر حالما اضمد جرحك، كيف هو الآن؟

- اشعر بوخز خفيف عندما اطوي ركبتي ولا شيء سوى ذلك. حدثني عن مأوى الاطفال.

- انه يضم عشرين طفلاً. جاءت آنا الى هنا منذ خمسة وثلاثين عاماً كمبشرة ثم وجدت ان لا جدوى من التبشير لكون الدين هنا مشابه لعقيدتها فقررت ان تنذر نفسها للعناية باليتامى والمشردين.

- تبدو لي امرأة رائعة.

- الاطفال مولعون بها، ولو كانت تملك المال الكافي لما تركت مشرداً واحداً في الطرقات.

عاين كاحلها بعد الافطار وقال انه سيشفى خلال يومين على الأكثر فيما سوف يستغرق الجلف فوق ركبتها اسبوعاً ليندمل. قال وهو يعيد الأدوات الى حقيبته:

- اتعلمين ان الأهالي يطلقون عليك اسم السيدة الصغيرة ذات الشعر الأبيض؟ معظمهم لم ير في حياته شعراً اشقر طبيعياً. يسرني انك لم تتبعي موضة الشعر القصير. لا افهم لماذا تصر النساء هذه الأيام على التشبه بالرجال.

- تبدو لي انك من النوع الذي يفضل الواقعية على الأنوثة.

- افضل مزيجاً من الأمرين لكن هذا نادر الوجود، فالنساء القديرات عاديات الجمال على الأغلب، والفتيات الفائقات الجمال قلما يتمتعن بذكاء ورجاحة عقل.

تساءلت في سرها ترى في اية خانة يضعها!

غادرا البيت بعد التاسعة بقليل وفي طريقهما مرا بمجموعة من النساء يملأن الماء من حنفية عامة وبدت الوان ثيابهن الوطنية كبتلات زاهية تزين الخضرة على جانب الطريق. لوحت لهن فيفيان وقالت لطوم:

- يا لهم من شعب جميل الشكل. اتساءل لماذا تظن الشعوب البيضاء انها تفوقهم حسناً. اعتقد ان الجلد الأسمر اكثر جاذبية من جلدنا.

التفت اليها وقال:

- انت نفسك بدأت تكتسبين سمرة جذابة.

قالت وهي تنظر الى ساعديه الملوحتين بسمرة داكنة:

- لن تحرقني الشمس ابداً كما فعلت بك.

- اذا اكتسبت سمرتي يوماً فاغلب الظن انك ستصابين بتجاعيد وانتفاخ تحت عينيك، فهذا الطقس قاس جداً على بشرات النساء الا اذا قضين نصف وقتهن في وضع المساحيق وما شابه.

- لن اخشى التجاعيد إلا ان الانتفاخ تحت العينين يبدو مثيراً للقرف. متى تبدأ في الظهور؟

اجابها باسماً:

- اعتقد انك ستنجين منها سنة او اثنتين. هل تتناولين يومياً حبوب البالودرين المضادة للملاريا؟

- نعم يا دكتور.

فقال مداعباً:

- يا لك من طفلة عاصية.

كان مأوى الأطفال بيتاً واسعاً مكوناً من طبقة واحدة ومشيداً على قوالب اسمنتية تمنع الرطوبة وتسلل الحشرات. سطحه من الحديد الصدىء وجدرانه في حاجة الى الطلاء. بدا المكان مهجوراً الا من بستاني عجوز يقص العشب في زاوية الحديقة.

اوقف طوم السيارة قرب الدرجات العتيقة المؤدية الى الشرفة واخذ يضغط على البوق بوتيرة معينة، وحالما توقف عن التزمير، انفتح الباب المزود بشريط مانع للبعوض وهبط فريق من الاطفال ركضاً ليلقي بنفسه على السيارة. كانوا من كل جنس ولون، هنود هزيلو الأجسام سود الشعر ضاحكو العيون، صينيون ذوو انوف

فطساء، فتاتان ملاويتان في العاشرة من العمر في لباس وطني. اخذوا يزعقون باعلى اصواتهم ويقفزون على السيارة كقطيع من الجراء الملهوفة.

وحالما ترجل طوم من السيارة تعلق طفلان صغيران بساقيه فيما تمسك الآخرون بذراعيه مطالبين باهتمامه.

ـ اين الآنسة آنا؟

زعق عالياً ليسمعوه فأشاروا بأذرعهم الصغيرة واخبروه ان الآنسة آنا في المطبخ. فقال لفيفيان مبتسماً:

ـ لنحتم بالداخل قبل ان يلقوا بنا ارضاً. تعالوا ايها الصغار. خذوا هذا فلعله يسكتكم بضع دقائق.

ثم اخرج من جيبه كيساً من الحلوى وقذف به الى احدى البنتين الملاويتين قائلاً:

ـ هل لك ان توزعيها عليهم يا خديجة؟ انها تكفي الجميع.

وفيما تهافت الصغار حول خديجة لينال كل منهم نصيبه من الحلوى صعد طوم وفيفيان الدرج ودخلا البيت.

وناداه من الداخل صوت نسائي جهير:

ـ اهذا انت يا طوم؟

فزعق مجيباً:

ـ اجل. لقد جئتك بضيف.

ـ خذه الى غرفتي وقدما لنفسيكما شراباً. سأوافيكما فوراً.

فتح طوم باباً في اخر الردهة وقاد فيفيان الى غرفة صغيرة بدت مكتباً وعيادة معاً. التقطت فيفيان دباً صغيراً استهلكه طول الاستعمال فصار بعين واحدة واذنان على وشك الانفصال، فعلق طوم قائلاً:

ـ هذا الدب هدية عيد جاءتهم قبل سنتين وقد عمر طويلاً باعتبار ان عشرين طفلاً اشتركوا في اللعب به.

ثم سمع خطوات ثقيلة في الممر وصرير حذاء فقال:

ـ ها قد اتت آنا.

اعادت فيفيان الدب الى مكانه واستعدت بعصبية للقاء مضيفتها العالية الصوت والثقيلة القدمين. انفتح الباب فتراجعت الى الوراء على رغم منها.

ان مرأى الآنسة آنا بكستون لأول مرة كفيل بترهيب مطلق شخص، فهي اولاً بدينة جداً والى حد انها عبرت الباب حشراً، وثانياً لأن شعرها الأحمر المصبوغ اشبه بشجيرة برية. حدقت الى فيفيان ثم قهقهت بصخب وهتفت:

ـ يا الهي انها فتاة! ما اسمك يا عزيزتي؟ اين وجدك طوم؟

قال طوم بسرعة:

ـ اسمها فيفيان كونيل، وجون كانتغهام كان عرابها.

ـ هكذا! اذن اهلاً ومرحباً بأي شخص يمت اليه بصلة. تشرفت يا عزيزتي.

صافحت فيفيان بقبضة ساحقة فقالت هذه الأخيرة:

ـ كيف حالك. ارجو الا يضايقك قدومي... دون دعوة مسبقة.

ـ بل تسرني رؤيتك. طوم، لماذا لم تقدم للفتاة شراباً؟

ـ لم تشأ ان تتناول شيئاً.

ـ هراء! اسكب ثلاث كؤوس. اجسامنا تحتاج الشراب في المناخ الحار لافراز العرق.

امتثل طوم لطلبها ثم قال بعد ان جرعت آنا كوبها بنهم:

ـ من سأعاين هذا الصباح يا آنا؟

ـ اثنان فقط يا عزيزي، ين مصاب باسهال بدأ البارحة، وحسين مصاب بحساسية في جلد عنقه. عدا ذلك جميعنا معافون والحمدلله. اتودين رؤية المكان يا آنسة كونيل؟

ـ ارحب جداً بذلك.

فقالت الآنسة بكستون وهي تنهض بجهد من على مقعدها:

- حسن. لندع طوم يقوم بمهمته. تفضلي، من هنا يا عزيزتي.

كان كل شيء داخل المأوى نظيفاً وزاهياً وحميماً بعكس مظهره الخارجي.

وضعت الآنسة بكستون على حضنها مجموعة من الجوارب وقالت وهي تشرع في رتقها:

- ما رأيك في المأوى؟

اجابتها فيفيان بدفء:

- انه رائع، جميع الاطفال يبدون سعداء وكل شيء نظيف ومبهج. عندما اخبرني الدكتور سترا... طوم انه مأوى للايتام والمشردين تصورته مؤسسة صارمة الا انه يشبه اي منزل عائلي فيه عدد اكبر من الأولاد.

- لسوء الحظ انه لا يتسع لكل الاطفال المشردين. امنيتي ان افعل ذلك لكنه، كما ترين، مزدحم بما فيه الكفاية.

لاحظت فيفيان ان صوتها قد رق وهي تتحدث عن المأوى ورأت في وجهها لطفاً ناقض عنفوانها السابق. سألتها بهدوء:

- هل اساعدك؟ اني ماهرة في رتق الجوارب، ولا احب الجلوس بلا عمل فيما يعمل الآخرون.

- ارحب بمساعدتك. هؤلاء الاطفال يبلون الجوارب بسرعة مذهلة. اليك بهذا الزوج، انه يخص ونغ.

قذفته اليها ورمت على حضنها علبة ابر وخيطان صوفية وقالت:

- اخبريني الآن لماذا جئت الى هذا البلد وما هي خططك.

انعشها السؤال المباشر بعد استيائها من حشرية السيدة كارشلتون الملتوية فلم تتردد في شرح ظروف مجيئها. علقت آنا في الأخير:

- فهمت، اذن انت تفكرين في بيع البيت والعودة الى انكلترا؟ هل لديك شاب ينتظر رجوعك؟

ابتسمت فيفيان وهزت رأسها نفياً فقالت آنا:

- ما تزالين صغيرة السن وخير لك ان تختبري الحياة قليلاً قبل ان تقدمي على الزواج. الرجال مخلوقات غريبة يا عزيزتي. اخالك تتساءلين عما اعرفه عنهم، اليس كذلك؟ لقد فقدت رونقي بطبيعة الحال غير اني لم اكن بدينة وسليطة اللسان قبلاً. استغلي شبابك لانه سيطير في غفلة عنك.

- اتساءل لماذا بقي عرابي عازباً؟

اجابتها الآنسة بكستون وعيناها تومضان:

- نساء عديدات طرحن هذا السؤال اذ كان رجلاً وسيماً، لكن معظمهن اردن الحصول على ثروته. كانوا يسمونه جون كاننغهام المجنون وهو يطوف شواطىء بورنيو وسوماطرا في يخته الفخم الذي ابتاعه من اميركي مفلس. بالطبع، حصل كل ذلك قبل ولادتك. ثم جاءت الحرب فوضعت حداً لحياته المائعة، وعندما خرج من معسكر الاعتقال الياباني كان قد تقدم في السن فاستقر في موبينغ حتى وفاته. كان يزورني مرة في الاسبوع فنستعرض الذكريات الماضية. كان من خيرة الرجال.

- انت وطوم كنتما صديقيه الوحيدين؟ اقصد بين الاوروبيين؟

- اجل، لم يكن يضيع وقته في رفقة الآخرين وقد صارحهم بذلك. طوم يشبهه، فعندما جاء الى الملايو، لاحقته اغلبية النساء الاوروبيات لكنه سرعان ما افهمهن من خلال تصرفاته انه لن يضيع وقته في معالجة امراض وهمية.

وضعت فيفيان خيطاً جديداً في الابرة وقالت متظاهرة بالعفوية:

- بأي حال فهو لا يبدو ميالاً الى النساء.

رمقتها آنا بنظرة ثاقبة وقالت:

- اجل، فهو اقترف غلطة في الماضي ويخشى الوقوع في اخرى. جميع الرجال يصدمون عندما يقعون في الحب فتدير لهم المرأة ظهرها وتزدري حبهم. ان ذلك كفيل بابعادهم عن فكرة الزواج الى الابد وهذه مشكلة طوم.

- لماذا؟ ما الذي حدث له؟

ثم اردفت بسرعة:

- آسفة. لم اقصد التحشر في امر لا يخصني بتاتاً.

- اشك في ذلك، فأنت قد تناسبين طوم لانك لست واحدة من اولئك الفتيات المبتذلات الساعيات الى التسلية. منذ ست سنوات تقريباً خطب طوم فتاة في انكلترا وقد فهمت من كلامه ان جمالها كان يفوق رجاحة عقلها، لكن الرجال الاذكياء كثيراً ما ينجرفون وراء وجه جميل. بأي حال، لقد احب تلك الفتاة بجنون وبدت هي تبادله حبه بالمثل والى ان قرر الرحيل الى الشرق. كانت، من جهتها، تصبو الى ان تكون زوجة اختصاصي ناجح في هارلي ستريت، لم ترق لها فكرة السكن في البراري هنا، وهكذا جعلته يختار بينها وبين تنفيذ قراره، وعندما رفض الخضوع لرغبتها فسخت الخطوبة وهربت مع شاب ثري واقق طموحاتها في البذخ والثراء. ومن حينها اخذطوم يتحاشى النساء.

- ان تصرفه الجاف اذن هو نوع من الدفاع.

- صحيح، وهو يزداد جفافاً مع مرور الزمن. بعد اربعين سنة سيصبح عجوزاً عازباً مشاكساً لان فتاة فارغة الرأس لم تقدر قيمته. يجب ان تحاولي تليين عواطفه يا عزيزتي.

- يا الهي! لن اجرؤ ابداً على ذلك، فأنا، بصراحة، ارهب جانبه اذ يجعلني اشعر باني تلميذة حمقاء مع انه عاملني بمنتهى اللطف منذ ان لويت كاحلي.

- اياك ان تحكمي على المظاهر يا عزيزتي فطوم يخفي انسانية كبيرة تحت مظهره الجليدي، ويكفيه انه تقوقع على نفسه ست سنوات طويلة. اعتقد انه نسي تلك الخطيبة تماماً انما اصبحت عادة لديه ان يتظاهر بنفوره من النساء. سوف ينفضها عنه يوماً ما واذذاك سوف يندلع الشرر.

وفجأة قال صوت خلفهما:

- من سينفض ماذا؟

قفزت فيفيان مجفلة وقالت آنا بهدوء:

- لا تقلق، كنا فقط نثرثر كعادتنا نحن النساء. الآنسة كونيل ستبقى لتناول الغداء وقد نجد لك بعض الفضلات ان كنت تود مشاركتنا.

قال باسماً:

- اشكرك على خطابك القصير المضياف. انكما مكبتان على العمل، لو دريت بانكما ستقيمان حفلة خياطة لكنت اتيت بجواربي لأضيف الى المجموعة.

بعد صمت قصير قالت فيفيان:

- لا بد ان في الشرق كثير من الناس الخلوقين غير الانانيين بقدر ما فيه اناس شرهين وسطحيين.

فقالت آنا بحزم:

- بالطبع يوجد كرام. عرابك كان واحداً منهم، وتلك المستوطنة التي اقامها لهي من افضل المشاريع التي جرى تنفيذها لغاية الآن. لا تدعي طوم يقنعك بان الشرق بؤرة فساد

- لا يمكنه اقناعي لأن اعماله تثبت عكس ذلك. اعتقد انه يحاول استفزازي فقط.

قطع حديثهم صراخ طفل خارج البيت فانتزعت آنا نفسها من كرسيها وهرولت لتستطلع الأمر. فسأل طوم حالما انصرفت:

- ما سبب الندبة على رسغك؟

- وقعت مرة من شجرة على ارض شائكة. حدث ذلك منذ سنوات طويلة.

تناول يدها وقال متفحصاً الندبة:

- لا ريب ان الجرح كان عميقاً.

- اجل، اعتقدت في البداية انهم سيضطرون الى بتر ذراعي، لكن الجرح شفي بسرعة.

مر باصبعه على الندبة الممتدة حتى ساعدها فأثارت لمسته الخفيفة رجفة غريبة في اعصابها. احست بدهر يمر قبل ان يفلت رسغها ويسترخي ثانية على الكرسي. ثم اشعل لفافة.

بعد ذلك تحدثوا في امور عامة حتى حان موعد الغداء، حيث كان طاهي آنا الهندي قد هيأ طبقاً من الكاري الذي تشتهر به مدينة مادراس، تناولت فيفيان اول لقمة فحرق البهار لسانها، وما ان تناولت الطعام المكدس على صحنها حتى عبق وجهها وسالت الدموع من عينيها، الأمر الذي اضحك رفيقيها المعتادين على المآكل الحارة.

ثم اعلن طوم وجوب رحيلهما فقالت تسأل آنا:

ـ كنت افكر بأن اقوم بعمل نافع اثناء اقامتي. هل تظنين ان الأولاد الكبار سيرحبون بتعلم السباحة؟ يمكنني الاتيان بهم بالسيارة واعدك بان نعتني بهم جيداً.

ـ هذا اقتراح رائع. أليس كذلك يا طوم؟ انما هل انت متأكدة من استعدادك لتحملهم؟

ـ بل سأسعد باستضافتهم. ما رأيك ان يأتوا في مطلع الاسبوع المقبل واذذاك تكون ساقي قد شفيت؟

لما وصلا البيت عائدين ورأت فيفيان سيارة جوليان الفخمة متوقفة على الممر تذكرت انه وعد نفسه بوجبة غداء، فهتفت بخيبة:

ـ يا الهي! نسيت الأمر كلياً!

فسألها طوم وهو يوقف سيارته:

ـ نسيت ماذا؟

ـ اني دعوت جوليان باركلي الى الغداء. لا بد انه ينتظر منذ الواحدة. والساعة تجاوزت الآن الثالثة. يا له من اهمال رهيب.

ثم تناولت قبعتها وحقيبتها من المقعد الخلفي وسألته:

ـ هل تتفضل لتناول القهوة يا طوم؟

ـ كلا. شكراً. يجب ان اعود الى عملي.

جوابه المقتضب المهذب اشعرها بتوتر مفاجيء بينهما، فترجلت

من السيارة قائلة:

ـ اشكرك جداً لأنك عرفتني الى الآنسة بكستون. لقد استمتعت بالزيارة.

ـ سآتي غداً لمعاينة كاحلك.

ثم حياها بايماءة مهذبة وانطلق بسيارته. وقفت تراقبه فرأت انه لم يستدر ويلوح بيده عند المنعطف فأدركت انه غاضب. ما السبب؟ ما الذي قالته او فعلته حتى تجلد وجهه هكذا.

دخلت البيت تقطب محتارة فاستقبلها تشن في الردهة:

ـ السيد باركلي ينتظرك في الحديقة.

بعدما سرحت شعرها خرجت الى الحديقة فوجدت جوليان مستلقياً على الاريكة الهزازة.

قال وهو يهب واقفاً لاستقبالها:

ـ ها قد عدت من تجوالك. تساءلت عما حصل لك. قال تشن انك خرجت مع سترانسوم.

ـ آسفة جداً يا جوليان. لا ادري كيف نسيت انك ستأتي للغداء. اخذني طوم لزيارة مأوى الاطفال في غاتارود ولم اتذكر موعدنا الا حين رأيت سيارتك. اكرر اعتذاري.

اجاب مبتسماً:

ـ لا بأس، لكني لا اعتقد اني احبذ تسكعاتك مع سترانسوم. يبدو انك غزوت قلبه وارجو الا يكون الأمر متبادلاً.

ـ لا تكن سخيفاً. كان ذاهباً الى المأوى بأي حال وفكر باني قد احب التعرف اليه.

ـ وجهك يتورد يا طفلتي، لا ريب ان لدى سترانسوم سحراً خفياً.

ازداد وجهها توردا واحتجت قائلة:

ـ اوه، جوليان، لا تشط في افكارك. كانت بادرة صداقة ليس الا.

ـ لا اؤ من بصداقة بريئة بين رجل وامرأة وخصوصاً مع فتاة جذابة مثلك.

اضاف العبارة الثانية وهو يجلسها معه على الاريكة ويقربها منه فانتزعت يديها وابتعدت عنه ثم فردت تنورتها لتجعل منها حاجزاً، وقالت بحزم:

ـ اذا كنت عابثاً محترفاً فليس شرطاً ان يكون كل الرجال مثلك.

ـ انا؟ عابث محترف؟ انت تصدمينني بهذا القول.

حاول التظاهر بانكسار الخاطر لكنه اردف وعيناه تتألقان:

ـ اصدقيني القول، الا تبتهجين في اعماقك اذا اخبرتك رأيي فيك وهو انك من اجمل الفتيات اللواتي رأيتهن في حياتي، وانك تغرينني بمعانقتك.

اجابته ببرود:

ـ بما اني واثقة تماماً من انك قلت الكلام نفسه لثلاثين فتاة على اقل تقدير، فاجيبك بصدق ان رأيك لا يفرحني.

جاءها تشن لحظتها بشرابها المثلج ولما انصرف سألها جوليان:

ـ ما الذي يعطيك انطباعاً باني من النوع العابث؟

ـ وهل تريدني ان اصدقك بانك من النوع الخجول؟ فها انت تتحدث عن معانقتي ومعرفتنا لم تتعد الاسبوعين حتى الآن.

ـ ولم لا؟ ان ذلك لا يجعل مني ذئباً، فأي رجل يلتقي فتاة جذابة فمها كالوردة، يشعر برغبة في معانقتها باسرع وقت ممكن.

انفجرت ضاحكة وقالت بمرح:

ـ اوه، جوليان، لا امل في اصلاحك! فم كالوردة! هذا الاغراء الشاعري انقرض مع سفينة نوح. قد تقول بعد قليل ان بشرتي كالدراق وان عيني كالنجوم. الا تدري ان الفتاة لم تعد تنخدع بهذه التعابير العتيقة؟

لم يأبه لضحكها الساخر وقال هامساً:

ـ بل ان بشرتك تذكرني بالعاج الناعم الملمس، اما عيناك

فاشبههما بذلك الحوض تحت النوافير اذ انهما صافيتان جداً وتتألقان بالظلال الخضراء المتماوجة فيهما.

تجاوبت على رغم منها مع هذا الوصف الشاعري مع انها ادركت انه مجرد اطراء. اجل، لم تنخدع بتقربات جوليان الناعمة لكنها، في الوقت نفسه، لم تحس مناعة تامة تجاه تملقاته وخصوصاً بعد الطريقة الجافة التي ودعها بها طوم.

كان جوليان خبيراً في تقييم ردود الفعل الانثوية تجاه تقرباته الغزلية ولذا بادر الى ازاحة تنورتها الوارفة واقترب منها قليلاً، وقال بصوت اجش:

ـ الا تميلين الي قليلاً بالرغم من اساليبي الماكرة؟

فاجأها تصرفه فاحتارت في امرها... قالت وهي تحاول بشجاعة، ان تتصنع رباطة الجأش:

ـ بالطبع انا اودك يا جوليان فانت كنت في منتهى اللطف وساعدتني كثيراً منذ ان التقينا، لكني...

فقاطعها بقوله:

ـ اعتقد انك خجولة اذ توردت ثانية. يا حبيبتي الصغيرة...

اقترب منها وعانقها الا انه فوجيء بالنتيجة، فبدل ان تحدق اليه بنظرة تذوب هياماً - كما تفعل الأخريات - دفعته عنها بعنف وقفزت واقفة وهي تقول بحزم:

ـ لا تكرر هذه الفعلة، من فضلك.

ثم جلست على كرسي قريب واكملت الشراب. شعر جوليان بهزيمة واضحة في مهمته الرومانسية. فلو انها صفعته او انفجرت باكية لاستطاع مداراة الموقف، اما ان تزيحه جانباً وتفهمه بحزم انها ترفض تقرباته فهذا تصرف خارج عن خبرته وغير معتاد عليه. هتف بحرد:

ـ لا حاجة بك الى كل هذا التحفظ!

فحدقت في كأسها الفارغة بصمت واخذ هو يرمق الحصى

بغضب، وفجأة استرد مرحه المعتاد وقال مستميحاً:

ـ آسف يا فيفيان. لننسى الموضوع. اعدك بعدم تكراره.

خيل اليه انها ستمضي في تجاهلها غير انها ابتسمت بدفء ودعته لرؤية مجموعة الجاد النادرة التي اورثها اياها عرابها. مكث جوليان لتناول الشاي وامضيا الوقت في حديث مرح وكأن تلك الحادثة لم تحصل ابداً او كأنهما اخ واخته.

بعد ذلك تجولا في الحديقة وقال جوليان معلقاً:

ـ يبدو ان كاحلك تحسن كثيراً.

ـ نعم والحمدلله. لقد زال معظم الورم وقد استطيع نزع الضماد غداً مع اني سألبس احذية منخفضة الكعب لبينما يبرأ كلياً.

ـ ما رأيك لو اعرفك الليلة الى ملهى سلستيال؟ انه مرقص محلي مشهور ولديه فرقة جيدة. ان لم ترغبي في الرقص سوف تتسلين بمشاهدة الآخرين. ان بعض الراقصات بالأجرة محترفات ماهرات.

ـ ارحب بالذهاب. هل ارتدي ثوب سهرة؟

ـ كلا، اللباس فيه عادي، مع اني سأذهب الى بيتي لابدل ثيابي. هل يناسبك ان امر عليك حوالي الثامنة؟

بعد انصرافه صعدت الى غرفتها واستلقت على فراشها لتستريح استعداداً للسهرة. استرخت جسمانياً انما اخذت تفكر في جوليان... انها توده كثيراً وتعترف بجاذبيته الشديدة لكنها لم ترحب ابداً بمحاولته. قد تكون تحفظت اكثر من اللازم، لكن ثقتها بان العناق الذي يتم بقصد الاستمتاع العابر بات رخيصاً ومبتذلاً ككلمتي «حبيبتي» او «حبيبي» اللتين تجردتا من معناهما العميق لكثرة ما يرددهما الناس في احاديثهم.

بعد عشاء مبكر، استحمت وزينت وجهها بعناية خاصة. قررت فجأة ان تغير تسريحة شعرها، وبعد تجارب عدة عقصته في مؤخرة رأسها فبدت كصبية اغريقية. ثم ارتدت فستاناً حريرياً بلون الكريم وزينت صدره بعقد الجاد الذي اهدته اياها العائلة الصينية. الضماد

حول كاحلها كان الشيء الوحيد المشوه لمظهرها الجذاب فنزعته وهي تشعر ببعض الذنب واملت الا يلحظ تشن او كيم انها فعلت ذلك.

عندما وصل جوليان ليصطحبها وجدها تنتظره على الشرفة وقد دثرت كتفيها وذراعيها بالسترة البرتقالية المطرزة.

كان ملهى سلستيال في وسط البلدة وفوق مدخله لافتة ضخمة تؤلق اسمه بالنيون، فيما يقف البواب امامه، وهو رجل سيخي ضخم الجثة، يضطلع ايضاً بمهمة الطرد اذا اخل احد الرواد بالأمن داخل الملهى. شرح لها جوليان ذلك وهما يعبران الردهة الى قاعة رقص فسيحة مضاءة بانوار خافتة. كانت طاولات الخيزران والكراسي تحيط بالحلبة، والى جوار الفرقة الموسيقية يوجد ركن خاص يعرف بصف التاكسي وحيث تنتظر راقصات الأجرة المحترفات قدوم الزبائن الذين يدفع الواحد منهم خمسين سنتاً للرقصة الواحدة.

وصلا في وقت مبكر بالنسبة الى سهرات موبينغ الطويلة ولذا وجدا القاعة خالية، فاختارا مكانهما تحت مروحة كهربائية سقفية وطلب جوليان شراباً. ثم قال موضحاً:

ـ بعد ساعة يعمر المكان بالرواد ولا يعود هناك موطىء لقدم... اين رباط كاحلك؟

ـ نزعته عنه اذ ما عدت بحاجة فعلية اليه.

ـ ما رأيك في رقصة فالس هادئة قبل ان يبدأ الرواد في الهجوم؟

سرعان ما زال جمودها بفعل الموسيقى الحلوة ورقص جوليان البارع. لم تحضر في الماضي الا بضع حفلات راقصة، لكن خفة قدميها وتجاوبها مع الايقاع عوضا عن قلة خبرتها. ثم انتقلت الفرقة الى معزوفة سريعة الايقاع فسحبها جوليان من الحلبة قائلاً:

ـ من الأفضل الا تحملي قدمك ضغطاً مرهقاً في الوقت الحاضر.

بدأت الفرقة مقطوعة فوكستروت بطيئة فرقصا ثانية ولدى عودتهما الى مكانهما نظر جوليان الى المدخل ثم قال:

ـ لقد جاءت كارا مع الشاب فوغسون. هل ندعوهما لمجالستنا؟

هذه الليلة بدت كارا ميتلاند اكثر روعة وفتنة. كانت ترتدي فستاناً قطنياً برتقالي اللون ودثاراً اصفر وقرطين فضيين يتدليان من اذنيها وتنتعل حذاء اصفر. اما رفيقها، وهو ملازم اول، فكان شاباً طويلاً وخجولاً بعض الشيء وبدا واضحاً انه مبهور بجمالها الساحق.

اظهرت كارا ابتهاجها بدعوة جوليان، وخيل الى فيفيان ان رفيقها تقبل الدعوة على مضض. عادوا جميعاً الى الطاولة وطلب جوليان شراباً. ثم سألت كارا وهي تزيح الدثار عن كتفيها برشاقة:

ـ سمعت انك تعرضت مؤخراً لحادثة يا آنسة كونيل.

أجابتها الأخرى مبتسمة:

ـ كانت بسيطة وشفيت منها تماماً.

إحتشد الملهى بالرواد وبينهم كهول ورجال أعمال صينيون اضافة الى مجموعات من المواطنين البريطانيين وعدد من جنود الجيش الذين جاؤوا لينفقوا رواتبهم على الرقص والاستمتاع باجازاتهم القصيرة بعيداً عن حياة المعسكر. ثم ظهرت مغنية في ثوب ضيق من الساتان الأسود وراحت تشدو اغنية حزينة حول علاقة حب كتبت لها نهاية مدمرة.

واذ التفتت فيفيان صوب الباب رأت فجأة طوم سترانسوم يدخل برفقة زوجين هنديين.

لاحظ مايكل انجفالها فقال بسرعة:

ـ اتشعرين بتوعك؟ لقد شحب وجهك كلياً.

ـ صحيح؟ لكني على ما يرام. الجو خانق هنا، أليس كذلك؟

ـ اجل، انه يجعل المرء يحن الى برد انكلترا وصقيعها. فأنا أحلم احياناً بالثلج ثم استيقظ واجد غرفتي ساخنة كالفرن. اعتقد ان البلدان الاستوائية لا تلاءم اجسامنا.

طرحت عليه سؤالاً آخر وهي تراقب الطبيب ورفيقيه يجلسون الى

طاولة في الجهة المقابلة لحلبة الرقص. ازاحت كرسيها قليلاً بحيث اصبحت تواجه الحائط واملت الا يتعرف عليها بسبب تسريحتها المختلفة.

سألها جوليان:

ـ هل وجود طوم سبّب شحوب وجهك؟

ـ كلا بالطبع. لكنه قد يغضب اذا رأى الضماد منزوعاً، كذلك اوصاني بالراحة يوماً او اثنين.

ـ ذلك هراء، فأنت ادرى منه بحالة قدمك. كل الاطباء يحبون اصدار الأوامر للناس ويعاملونهم كاطفال. انظري، هناك زبون يزعج احدى الفتيات.

وبينما كانت جالسة في زاويتها رأت احدى الراقصات تتهرب من زبون يحاول معانقتها. كان الرجل يضحك بصخب ويلف خصرها بذراعيه بقبضة قوية، فيما هي تلوي وجهها بعيداً عن فمه.

فهتفت فيفيان بقلق:

ـ لماذا لا يتدخل احد؟ جوليان، الا يمكنك ايقافه؟

قال بتكاسل:

ـ لا ارغب في لكمة على وجهي. لا بد انها فتاة جديدة وسوف تتعلم قريباً كيف تواجه هذه التحرشات.

تقلص فمها بغضب وقبل ان ترد عليه بجواب لاسع، انفصل احدهم عن حشد الراقصين، فغمغم جوليان:

ـ ها هو طبيبنا الشجاع يسارع الى نجدتها!

قلصت فيفيان يديها ورأت طوم سترانسوم ينقر بيده كتف الرجل الذي استدار متعثراً ليرى الشخص الذي قطع عليه محاولاته. وهنا بادرت الراقصة الى اغتنام الفرصة فانتزعت نفسها من قبضته التي استرخت مؤقتاً. ولما شعر انها قد افلتت منه اطلق شتيمة حنق واستدار ليصب نقمته على الطبيب.

ندت عن فيفيان صرخة مكتومة حين رأته يمد ذراعه ليسدد الى

طوم لكمة شرسة لكن هذا الاخير ازاح رأسه في اللحظة المناسبة ثم ادخل قدمه بين ساقي الرجل وقذفه من فوق كتفه حيث سقط ارضاً محدثاً صوتاً عنيفاً. وقبل ان يستفيق من الصدمة ويقف على قدميه وصل الحارس السيخي العريض المنكبين، وساعده احد الجنود الشبان على رفع الرجل المشاكس وجره الى الخارج.

تجاهل طوم الجموع المحتشدة حوله فأصلح ياقة عنقه وازاح خصلة الشعر التي سقطت على جبهته، ثم رأته فيفيان يعتذر الى المرأة الهندية التي كان يراقصها قبلاً وبعد ذلك انفض المتفرجون وعادت السهرة الى طبيعتها.

وقال جوليان:

- ضربة موفقة. يبدو ان سترانسوم ماهر في الجودو.

- يسرني ان شخصاً شهماً قد تدخل.

- اوه، كفي عن تهجمك. لا يمكننا جميعاً ان نكون ابطالاً.

- لنفترض اني كنت مكان تلك الفتاة.

- ذلك امر مختلف طبعاً.

- لا ارى سبباً للاختلاف.

- يا طفلتي العزيزة، لماذا تصبين غضبك علي؟ الفتاة لم تصب باذى والرجل القي خارجاً. ما الداعي الى تضخيم الأمر؟

عضت شفتها وردت بهدوء:

- آسفة. لم تغضبني انت وحدك بل موقف الآخرين ايضاً اذ اكتفوا بالتفرج والتسلي. كان خوف الفتاة واضحاً ولو لم يتدخل الدكتور سترانسوم لبقيت تعارك ذلك الوحش لغاية الآن.

بلغت الساعة الحادية عشرة وبدأت فيفيان تشعر بالتعب، لم تشأ ان تطلب الى جوليان ان يعيدها الى البيت لأن الآخرين لم يظهروا ميلاً لانهاء السهرة.

ولكي تكفر عن تهجمها على جوليان قبلت ان تشاركه رقصة فالس اخرى، وظنت ان طوم لم يراها لان الاضواء اصبحت اكثر

خفوتاً. ثم رقص جوليان مع كارا فاستأذنت مايكل في الذهاب الى غرفة التواليت.

وجدتها تغص بفتيات التاكسي وكن يتحدثن بحماسة عن بطولة الطبيب الذي انقذ زميلتهن الجديدة. كانت الفتاة نفسها تجلس في زاوية وحولها بضع زميلات يخطن كم فستانها الممزق، وقد بدت شديدة الشحوب ومتورمة العينين. ابتسمت لها فيفيان مشجعة بعدما شعرت بموجة احتقار طازجة تجاه كل الرجال الذين تقاعسوا عن مساعدتها.

لدى خروجها التقت طوم وجهاً لوجه وردت له التحية وهي تكبت رغبة في العودة الى غرفة التواليت. قال ببرود:

- لم اتوقع ان اراك هنا. هل اقدم لك شراباً؟

- لقد جئت مع بعض الرفاق...

فأكمل عنها قائلاً وهو يشير برأسه الى طاولتهم:

- لن يفتقدك فوغسون لانه قد اختفى على ما يبدو.

لم تره فعلاً فتابع طوم وهو يقودها الى المقصف:

- اظنه لم يتوقع عودتك قبل عشر دقائق فالنساء يقضين هذا الوقت عادة في اصلاح زينتهن.

جلسا على كرسيين عاليين وطلب طوم كوبين من عصير الاناناس دون ان يستشيرها. خطر لها ان تعاتبه على هذا التصرف ثم طغت عليها روح الدعابة فسكتت. الموقف مضحك فعلاً، فقبل خمس دقائق فرحت لانه لم يلاحظ وجودها لكنه رآها وانتظر خروجها من غرفة التواليت. قال وكأنه قرأ افكارها:

- لدي انطباع غريب بانك كنت تتهربين مني.

ردت بصوت مختنق:

- انها حقاً فكرة غريبة!

- لكنني لم اخطىء فيها.

قالت بدون ان تنظر في عينيه:

ـ لا ادري ماذا تقصد.

ـ انت لا تتقنين الكذب يا فيفيان. تخشين ان اؤ نبك على الرقص بكاحل ملتو. اليس كذلك؟

نظر الى قدمها قبل ان تجد وقتاً لاخفائها، وقال:

ـ اذن ازلت الرباط. ما كان يجب ان تفعلي ذلك.

قالت بسرعة:

ـ اعلم انك اوصيتني بالراحة لكن الألم زال، ومنظر الرباط لا يسر النظر.

ـ سواء كان بشعاً ام لم يكن فهو ما يزال ضرورياً. لا احب ان يتغاضى مرضاي عن تعليماتي، اكملي شرايك لأوصلك الى البيت.

ـ دكتور سترانسوم، لا ادري باي حق...

قاطعها بحزم:

ـ لا تجادلي. سأترك خبراً لرفاقك.

فأعلنت بحرارة:

ـ لا اريد العودة الى البيت. قد تكون طبيباً لكن ذلك لا يعطيك الحق باصدار اوامرك الي.

تأمل محياها العابق ثم قال:

ـ اتذكرين حادثة رانغون؟

ـ انها تختلف تماماً.

ـ ستذهبين الى البيت.

ـ لن اذهب.

وفجأة احاط رسغها بأصابع فولاذية وقال بهدوء:

ـ لا احسبك ستقاومينني وتثيرين فضول الحاضرين.

٥ - تمددت على الفراش وفكرت ان طوم سترانسوم يشكل لغزاً محيراً. فقبل ساعة وصفته بأنه لا يطاق اما الآن... الآن ماذا؟ كانت لا تزال تحلل عواطفها المتضاربة عندما ساقها النوم الى عالمه...

حدقا الى بعضهما البعض في معركة تحد صامتة، حيث تألقت عينا فيفيان غضباً وشمخ انفها تمرداً. وبالرغم من جسمها المتقلص نفوراً واستياء فقد ادركت انها ستكون الخاسرة لا محالة. قالت في الأخير بنبرة لاسعة حانقة:

ـ امرك! يظهر ان ذهابي هو الخيار الوحيد. هل تسمح بأن آتي بدثاري؟

ـ النادل سيأتيك به.

نادى احد العمال وكلمه بالكانتونية فأومأ الرجل وهرول بعيداً. فقال طوم:

ـ سيجلبه الى السيارة، اوصيته كذلك بأن يخبر باركلي انك متوعكة ولا تريدين حرمانهم من متابعة السهرة.

ـ انت لا تطاق!

ـ هذا ما قيل لي قبلاً. هل نذهب؟

ـ لا موجب لأن تقبض على ذراعي.

فأرخى رسغها وغادرا القاعة. لما اصبحا خارج البناء عبرا الشارع الى حيث اوقف سيارته، وحالما اتخذت مكانها سمعا هتافاً خلفهما، فاستدارت واذ بجوليان يقطع الشارع مهرولاً وسترتها على ذراعه. هتف بقلق:

ـ ماذا حدث؟ قال النادل انك اصبت بعارض صحي؟

لقد املت ان ينقذها جوليان، لكن نظرة طوم الصارمة سحقت ذلك الأمل سريعاً.

اخذت نفساً عميقاً واجابته:

ـ لا تقلق يا جوليان. بدأ كاحلي يؤلمني فعرض الدكتور سترانسوم ان يوصلني الى البيت.

ـ لماذا لم تصارحيني بذلك؟ انها لشهامة منك ان تتدخل يا سترانسوم، لكني لو علمت، لقطعت السهرة فوراً.

اجابه طوم بسلاسة:

ـ لم تشأ الآنسة كونيل ان تضطرك الى ترك ضيفيك الآخرين، وبما اني سأضمد قدمها ثانية ارتأيت ان اوصلها بنفسي.

ـ اوه، في هذه الحالة قد يكون من الخير ان تفعل. هل يمكنني المساعدة في اي شيء؟ اشعر اني المسؤول الوحيد عما حدث.

ـ بل الذنب ذنب الآنسة كونيل لانها خالفت تعليماتي.

بدا جوليان منذهلاً من هذه الادانة الصريحة. جلس طوم خلف المقود وادار المحرك. فوضع جوليان السترة حول كتفيها قائلاً:

ـ سأزورك غداً صباحاً. يؤسفني ان السهرة انتهت بهذا الشكل يا عزيزتي.

اجابته وهي تبتسم بوهن:

ـ لا عليك. لقد استمتعت بها بالرغم من ذلك.

ـ تصبحين على خير. اعتن بها يا سترانسوم.

انطلقا بالسيارة فلبست السترة والقت رأسها على ظهر المقعد. كانت تحس صداعاً وارهاقاً وعدم قابلية لمواصلة الشجار. صحيح انها اغتاظت لانه ارغمها على قطع السهرة لكنها سرت ضمناً لخروجها من القاعة الخانقة والعابقة بالدخان.

فتح علبة سكائره وعرض عليها واحدة فرفضت شاكرة. فأشعل لفافة وسألها:

ـ لماذا لم تستنجدي ببارکلي؟

ـ فكرت في ذلك، انما وجدت ان لا فائدة ترجى من ذلك، فهو يتحاشى التورط في المشاكل.

ـ اتقصدين اني كنت سأحدث مشكلة؟

ـ ليس تماماً، انما لديك موهبة خاصة في تنفيذ رغباتك. أليس كذلك؟

ـ طبعاً فلا جدوى من اتخاذ القرارات اذا لم يعمل المرء على تنفيذها.

ـ هل تثق دائماً بصحة آرائك ووجهات نظرك؟

ـ بصورة عامة.

ـ لا ريب ان الثقة الشديدة بالنفس تزود المرء باكتفاء كبير.

ـ انها ضرورية للاضطلاع بأية مسؤولية، فالطبيب مثلاً، عليه ان يتخذ قرارات سريعة ولا يسعه ان يتردد.

ـ اجل... كان معك صديقان هنديان. ألن يتساءلا عن غيابك؟

ـ اخبرتهما اني سأغادر المكان.

صمتا فترة واخذ جفناها يرفان وهي تقاوم النعاس. ثم قال فجأة:

ـ توقعت ان تقذفيني بعبارات نارية، ام تراك تخططين لانتقام اكثر هدوءاً؟

ـ ارهاقي يحول دون مشاجرتك. كان يوماً طويلاً.

فقال ضاحكاً:

ـ لقد ارحتني. انت عصبية المزاج يا فتاتي ولو ان كل مرضاي مثلك لاحتجت الى اجازة طويلة.

عندما وصلا البيت تناول حقيبته من المقعد الخلفي وفتح لها باب السيارة. كان الارهاق يشعرها بدوار، وفي ضوء الردهة بدا وجهها شاحباً وقد احاطت بعينيها هالة سوداء. قال فوراً:

ـ اصعدي تواً الى فراشك ودعي وصيفتك تساعدك. سانتظر في

غرفة المكتب.

ساعدتها كيم على الاغتسال وارتداء بيجاما قطنية. تدثرت بعباءة رقيقة واستلقت على الفراش ثم طلبت الى الفتاة ان تستدعي طوم.

قال وهو يدخل الغرفة:

ـ ستأتي لك كيم بحليب دافىء. قد لا تحبين الحليب لكنه سيفيدك كثيراً.

ردت ببسمة خفيفة:

ـ اذا رفضت شربه فسوف تسقطه في حلقي على ما اظن.

انتشر ضوء المصباح على شعرها المنسدل ومحياها الخالي من الزينة فبدت كطفلة مستسلمة.

جلس على حافة السرير وفحص كاحلها بأصابعه السمراء النحيلة التي تجمع بين القوة واللطافة. تألمت حين لمس موضع اللكمة ثم قال وهو يضمد قدمها برباط نظيف:

ـ من حسن الحظ انك لم تتأذي كثيراً. هل شددت الرباط؟

هزت رأسها نفياً وودت لو تزيح خصلة الشعر التي هوت على جبينه. قالت فجأة:

ـ كان لطفاً منك ان تنجد الراقصة الصغيرة.

ـ اعتقد ان رفيقها لم يتعمد ايذاءها. انه رجل مزارع ومن شأن اي واحد مثله، ينعزل اسابيع طويلة في مزرعة نائية، ان يتحامق بهذا الشكل. انه على الارجح شاب خلوق في اوقات الصحو.

تذكرت عيني الرجل المحمرتين الشرهتين ويديه الخشنتين اللتين كساهما الشعر الكثيف فقالت باشمئزاز:

ـ بدا متوحشاً.

قال وهو يثبت الرباط:

ـ هناك عرق وحشي في كل منا لكنا نضبطه معظم الوقت.

طرقت كيم الباب ودخلت بكوب حليب على صينية. شربته فيفيان بامتعاض فقال طوم:

ـ الآن، سأتركك لتنامي في سلام.

ـ بالنسبة الى فك الرباط، هل ستأتي غداً ام اذهب انا الى العيادة؟

ـ سأزورك بعد الغداء على الارجح.

ثم تناول يدها وقال هامساً:

ـ نامي هنيئاً يا صغيرتي.

بعد رحيله نزعت العباءة واطفأت المصباح. تمددت على الفراش وفكرت ان طوم سترانسوم يشكل لغزاً محيراً، فقبل ساعة وصفته بانه لا يطاق اما الآن... الآن ماذا؟ كانت لا تزال تحلل عواطفها المتضاربة عندما ساقها النوم الى عالمه.

جاء السيد آدمز الى موبينغ بعد عشرة أيام. قال عندما التقته في المطار:

ـ لا موجب لاسألك ان كنت احببت الملايو فأنت تبدين فتاة مختلفة يا عزيزتي.

وافقته فيفيان مبتسمة:

ـ هذا ما اشعره بنفسي. اني استمتع بحياتي كما لم افعل مطلقاً من قبل.

بعد تناولهما طعام الغداء تطرق المحامي الى موضوع الأرث فقالت الفتاة وفي عينيها ظلال قلق:

ـ اعترف باني لم افكر في المستقبل بعد. كنت لفرط استمتاعي ارجىء التفكير باستمرار.

ـ افهم من قولك انك غير مستعجلة على العودة الى وطنك؟

فهتفت:

ـ مستعجلة؟ لو اني اجد طريقة ما لابقاء هذا البيت مفتوحاً لقضيت عمري هنا.

ـ آه، اذن خزمت رأيك على ناحية معينة، على الأقل.

فقالت بأسى:

ـ هناك فارق كبير بين التمني وتحقيق الأمنيات.

ـ ليس دائماً. بأي حال، لا حاجة للاسراع في اتخاذ قرار. انا بادرت الى زيارتك لظني بانك لم تحبي المكان.

قالت وهي تتلفت حولها بنظرة حانية عبرت عن شغفها بالبيت:

ـ لا يسع المرء الا ان يغرم بكل هذا.

فعلق قائلاً:

ـ عندما اعربت عن رغبتك في الاستقرار هنا استنتجت انك اعجبت بالبلد وبالمنزل بشكل خاص.

ـ صحيح، فالبيت رائع واعيش كالأميرات، وحتى لو كان مجرد كوخ خشبي لرغبت في البقاء. هناك اشياء في هذه البلاد تسحر المرء. من الصعب ان افسر. ان الحياة في انكلترا تبدو كالحة جداً بالمقارنة. هل يوحي كلامي باني عديمة الولاء لوطني؟

ـ لا اظن ذلك يا عزيزتي فبعضنا يخلق للسفر ولايجاد مستقر جديد لنفسه. لقد امضيت زهاء اربعين سنة في سنغافورة واستطيع القول اني سأمكث فيها حتى مماتي. بالطبع انا فخور بجنسيتي الاسكتلندية وكثيراً ما احن الى التلال والأكواخ التي عرفتها صبياً، لكن اذا رجعت اليها اليوم فسيبقى قلبي هنا.

ـ ادرك ما تقصد. انا لم يمض على وجودي هنا الا وقت قصير ومع ذلك اشعر بحيوية عجيبة... وتوجد اشياء كثيرة استطيع فعلها... سكان المستوطنة مثلاً، انهم يحتاجون الى من يساعدهم ويعتني بهم. اوه، على فكرة، لقد دعوت الدكتور سترانسوم والآنسة بكستون الى العشاء.

حدثته عن الآنسة بكستون وكيف انها ستدرب اولاد المأوى على السباحة. ثم اردفت:

ـ افكر ايضاً في تأسيس حضانة لأطفال المستوطنة. انما قد يكون من السخف ان افعل ذلك لاني لن امكث هنا طويلاً.

ـ لعله من الأفضل ان تنتظري قليلاً.

فسألته:

ـ هل تظن، يا سيد آدمز، ان هناك امكانية لأجد عملاً في سنغافورة او في كوالا لومبور، كي استطيع البقاء في الملايو؟

ـ اذا بعت المنزل فلن تضطري الى كسب عيشك، وارجح كذلك ان تتزوجي في المستقبل القريب.

قالت ضاحكة:

ـ وكيف اعتمد على زواج لم يحصل بعد؟ من جهة ثانية، ينبغي ان اقوم بعمل مفيد اذ لا احد يعيش حياة ترف مطلق هذه الأيام، كما لا اريد بيع البيت لأي كان.

فقال المحامي:

ـ ان مجموعة الجاد تساوي مبلغاً كبيراً من المال سيمكنك من البقاء في البيت لمدة معقولة. في السنوات الأخيرة قدم عدد من خبراء الجواهر عروضاً مغرية لابتياع القطع افرادياً. لن نجد صعوبة في ايجاد شار.

ـ اجل، فكرت في ذلك لكني اظن انها يجب ان تقدم الى متحف اذا لم يكن هناك بد من نقلها خارج البيت، فأنا لا اريد المتاجرة بشيء امضى عرابي سنوات طويلة لجمعه.

تابعا الحديث حتى موعد الشاي وبعد ذلك دخل آدمز غرفته ليستريح فيما اشرفت فيفيان على التحضير لحفلة العشاء الصغيرة.

عند العشاء جلسوا جميعاً يتسامرون وسرعان ما اكتشف السيد آدمز والآنسة بكستون ان لهما اصدقاء مشتركين في سنغافورة، وبما ان المحامي كان التقى طوم في مناسبات سابقة فسرعان ما اكتسب الحديث حرارة.

تحدثوا في مواضيع عديدة ثم انخرطت آنا وآدمز في نقاش حول القوانين المتعلقة بتبني الأطفال، وقال طوم لفيفيان:

ـ هل نتجول قليلاً في الحديقة؟ لا اظنها سيفتقدان غيابنا لعشر دقائق.

خرجا بهدوء من الأبواب الزجاجية وعبرا الفناء المضاء بالمصابيح الى الحديقة. فهتفت فيفيان مشيرة الى اسراب من الذباب الناري المشع كالجواهر:

- اوه، انظر! يا له من مشهد!

ثم سألته وهي تنظر الى وجهه المغمور بضوء القمر:

- ترى اين تختبىء هذه الحشرات في النهار؟

- في النهار تصبح مجرد حشرات بشعة تختبىء في الفجوات.

- من الصعب تصديق ذلك. انها تبدو في غاية الروعة في ضوء القمر.

- نور القمر يؤثر ايضاً على اشياء اخرى. انه كالماء، اذا نظرت في بركة ورأيت فيها حجراً فانه يبدو لك قريباً من السطح لكن اذا مددت ذراعك لوجدتيه بعيداً عن متناولك. نور القمر يشوه الحقائق بشكل ما.

فعلقت مبتسمة:

- هل انت رجل واقعي بطبعك ام انك تصر، كطبيب، على رؤية الاشياء في الوانها الحقيقية؟

- اني، كرجل وكطبيب معاً، افضل الواقع على الخيال. ان الأشياء القيمة لا تحتاج الى ضوء لتظهر اصالتها.

كانا يعبران الدرب الضيق الذي يحيط بالمرج وعلى مقربة من السياج الكثيف الذي يفصل الحدائق عن الشجيرات البرية، وفجأة قبض على رسغها بقوة وهمس يأمرها:

- لا تتحركي.

امتثلت لأمره وتجمدت مكانها، وما هي الا لحظات حتى رأت شيئاً اسود كحبل ملتو، ثم ادركت انه ثعبان. بقي مكانه ساكناً لأقل من دقيقة وقد جعله سكونه يبدو اكثر شراً. ثم حرك رأسه قليلاً وانسل ملتوياً حتى اختفى في العشب القريب.

ارخى طوم ذراعها وقال:

- زال الخطر. اتساءل ما الذي جاء به الى هنا؟ انهم يختبئون عادة في الوهاد.

- هل كان... ساماً؟

- لا اعتقد ذلك ولكن لما المجازفة. ما بك؟

ارتجفت قرفاً وقالت متلعثمة:

- لا شيء... اشعر فقط...

فاحتواها فجأة بذراعيه وقال يطمئنها:

- لقد رحل. لا تخافي. ان الثعابين والأفاعي لا يلسعون الا عندما يؤخذون على حين غرة.

- آسفة. لم ار ثعباناً من قبل.

- انك طفلة... وعلى فكرة، سيقيم الجيش حفلة راقصة في الأسبوع المقبل. هل تودين حضورها؟

- اوه، طوم، كان بودي ان ارافقك لكن جوليان دعاني الى حضورها معه.

ترك يدها وتناول علبة سكائره فقالت بسرعة:

- ليتك دعوتني قبله.

قال وهو يقدم لها العلبة:

- من المؤكد انك ستستمتعين بصحبة باركلي.

تناولت لفافة وقالت وهو يشعلها لها:

- انت لا توده، أليس كذلك؟

- لا اتعاطى معه كثيراً.

- انك تتهرب من السؤال.

فرد بصوت فاتر:

- الشبان امثاله يحترفون اللطف مع النساء.

- انه انتقاد خبيث. اعلم انه يحب الغزل ولكن لا ضير في ذلك.

- شرط الا تأخذي غزله على محمل الجد.

- بالطبع لا. اننا مجرد صديقين.

فقال بحزم:

ـ ما دام يلتزم هذه الصداقة.

ـ ولماذا لا يلتزمها؟

ـ لأن علاقاته السابقة مع النساء لم تقتصر على الصداقة.

قالت ببرود:

ـ لم ادرك بأنك تعطي اذنك للشائعات.

ـ لا افعل. لكني اعرف نوعية باركلي.

ـ انك تظلمه كثيراً.

ـ سألتني رأيي فيه واصريت على معرفته.

قالت بكبرياء:

ـ اني فتاة راشدة وقادرة على اختيار اصدقائي.

ـ يا طفلتي العزيزة، لم اقل لك عكس ذلك. لا شأن لي بمن تختارين من اصدقاء.

هتفت مغتاظة:

ـ ليتك تكف عن تسميتي طفلة! عمري اثنان وعشرون عاماً.

رد بجمود:

ـ آسف، سأكف عن ذلك.

استلقت على سريرها الكبير ولاحقها السهد الى ما بعد منتصف الليل. اقنعت نفسها مراراً وتكراراً بانه من السخف ان تدع جدالاً تافهاً مع طوم يثير اعصابها. وهمست بصوت عال:

ـ لماذا؟ لماذا اكترث بما يظنه عني؟

كرت الدقائق وعندما اشار عقربا الساعة الى الواحدة، نهضت من الفراش واخذت تتجول في ارجاء الغرفة المعتمة وهي تتساءل عن الفارق الكبير بين علاقتها بطوم وعلاقتها بجوليان. فمع جوليان تشعر بالراحة والاسترخاء اما مع طوم فتنتابها سلسلة من العواطف لا يمكن التكهن بها وتراوح بين الهناء الطفولي، عندما يكون لطيفاً معها، وبين العداء اللامع عندما يسخر منها ويستبد بها. هذه الليلة

كاد ان يبكيها! فكرت بحرارة:

ـ اني اكرهه! اكره ثقته وتهذيبه البارد وتهكمه. اكره كل شيء فيه وليتني ما التقيته ابداً!

في تلك اللحظة عينها ادركت انها تحبه... ادركت ان الحب قد زحف في غفلة منها وبدون استئذان ليلف خيوطه حول قلبها. اكتشافها اشعرها بمرارة عميقة لان الوقوع في حب رجل كطوم سترانسوم لا يمكن ان يجلب السعادة ابداً.

عصر اليوم التالي سافر آدمز شمالاً الى بينانغ حيث ينتظره عمل آخر، ونصحها عند الوداع بان تستمتع بوقتها اسبوعاً او اسبوعين لبينما يجد لها عملاً لائقاً في سنغافورة او في اية مدينة اخرى في اتحاد الملايو.

لما رجعت من المطار وجدت جوليان ينتظرها فحيته بلهفة واملت ان تلهيها رفقته المرحة عن افكارها المضطربة. قررا ان يسبحا حتى موعد الشاي ويذهبا من ثم الى السينما في موبينغ.

استلقيا بعد السباحة على مناشف كبيرة تحت مظلة مخططة. ارتكز جوليان على مرفقه وقال وهو يراقب حركاتها الرشيقة.

ـ اتعلمين انك تصعّبين علي الوفاء بوعدي؟

ـ اي وعد؟

ـ بان لا اغازلك ثانية.

ادارت وجهها صوبه، لكن عينيها المحميتين بنظارتين داكنتين لم تكشفا له شيئاً من رد فعلها. اقترب منها وازاح نظارتيها قائلاً:

ـ هل لك ان تفكري الآن؟ انا لا احب النكث بوعدي، لكن اذا اصريت على ان تبدي كحورية جميلة فاخشى ان يتغلب الاغراء على ارادتي.

حدقت الى وجهه تبحث فيه عن جواب لسؤالها. انه وسيم جداً وبارع في الحب على الأرجح. اضاف وكأنه قرأ افكارها:

ـ ما الذي يجعلك تظنين انك ستستمتعين الآن بعناقي في حين

انك نفرت من محاولاتي السابقة؟

قالت وهي تجلس الى جانبه:

ـ لأن الأمور تغيرت وتعرفت اليك الآن اكثر.

ـ انا ايضاً ازددت معرفة بك يا دميتي. انت من النوع الذي يعتقد ان القبلات تعني الحب وان الحب يعني الزواج.

اجابته بهدوء:

ـ انا لا اوهم نفسي بانك تحبني يا جوليان، اذا كان هذا ما تقصده.

ـ كلا، لا اقصد هذا، وما دمت قد ذكرت الأمر فاعلمي اني لست واقعاً في حبك، بل لا اؤمن بوجود الحب. اما انت فتؤمنين به يا عزيزتي، انما لا تحبينني، لماذا اذن هذا الترحيب بقبلاتي؟

ـ بحق السماء، هل عليك ان تحلل هذه الأمور باستمرار؟

ـ ليس من عادتي ان احلل لاني لا اعرف فتيات كثيرات مثلك.

ـ لكنك تعتقد ان لدي دافعاً خفياً؟

ـ اجل، لا بد من وجود سبب.

ـ ما اشد تواضعك! اظن ان مطلق فتاة ترحب بغزل شاب وسيم مثلك.

قال باسماً:

ـ اطراؤك لن يجديك نفعاً يا فتاة، وان كان ما تقولينه صحيحاً فلماذا لم تنجذبي الى سحري من قبل؟

ـ اوه، هذا اغرب جدل سمعته في حياتي! خبر لي ان اعود الى السباحة.

مدت يدها لتتناول قبعة السباحة لكنه اعتقل ذراعها وادارها صوبه وعانقها.

ازاحته بلطف وقالت:

ـ لقد حان موعد الشاي. سوف يطل تشن قريباً.

وغطست في الحوض قبل ان تعطيه فرصة للجدل. اشعل لفافة

واخذ يراقب لمعان اطرافها السمراء وهي تسبح الى الجهة المقابلة حيث خرجت من الماء وجلست على الحافة تضحك من بعيد. وفجأة سألته:

ـ هل لي ان اطرح عليك سؤالاً خاصاً جداً؟

ـ من كل بد، فحياتي كتاب مفتوح وليست لدي اسرار اخجل منها.

ـ جوليان، هل كنت على علاقة سابقة مع كارا ميتلاند؟

تقلصت يده وقال بوجه جامد:

ـ لماذا تسألين؟

ـ لانه تكون لدي انطباع بانكما كنتما على علاقة في الماضي، اما انك كنت تحبها او العكس.

ـ قلت سابقاً اني لا اؤمن بشيء اسمه الحب، وكذلك كارا لا تؤمن به على ما اظن. انها تحب الحرية والاستمتاع بالحياة.

اجابت فيفيان بتؤدة:

ـ قد يكون ذلك مجرد ستار فهي لا تبدو سعيدة بالفعل. ربما هي ملت الاستمتاع بالحياة.

بعد تناول الشاي توجها الى موبينغ. كان الفيلم ملوناً ويدور حول دراما عاطفية ذات حبكة مألوفة. جلسا في الصف الأمامي واصر جوليان على الامساك بيدها. بعد ذلك تجولا في السوق ثم عادا الى البيت.

حالما اصبحا داخل البوابة، اوقف جوليان السيارة واخذها بين ذراعيه. لما اقترب منها انتزعت نفسها منه. فسألها:

ـ ما الأمر يا حبيبتي؟

ـ عناقك لا يعني لي شيئاً.

ـ من السهل ان اصلح ذلك.

هذه المرة الصقها به... ولما اخلى سبيلها انتابتها صدمة لكونها ادركت ان علاقة عابثة كهذه لن تبرىء قلبها الموجوع.

بدا ان جوليان استشف مشاعرها. فقال:

ـ اسمعي يا فيفيان، انت فتاة محافظة لانك، كالكثيرات امثالك، لم تتح لك الفرصة لأن تتخلي عن تحفظك. اما انا فشعاري في الحياة هو ان اعيش ليومي ولهذا السبب لا اعرف فتيات كثيرات على غرارك. لقاؤنا اوجدته الصدفة، واجد نفسي في وضع جديد وصعب نوعاً لأن تورطي مع فتاة محافظة يخالف قواعدي ولا ادري بالتالي كيف اتصرف.

ـ الا يمكننا ان نظل صديقين؟

ـ افهمتك قبلاً يا دميتي اني لا اؤمن بوجود صداقة محضة بين الرجل والمرأة. لو كنت انت من النوعية الأخرى لكنا استمتعنا كثيراً وافترقنا ودياً في نهاية الأمر، ولو كنت انا من نوعية اخرى لتبادلنا التنهدات الرومانسية والنظرات العذبة، لكن كلا الحلين صعب بحكم الظروف.

لاذت بالصمت لعجزها عن الجواب. احزنتها فكرة انتهاء صداقتهما وادركت في الوقت نفسه صحة كلامه.

وعندما شيعته الى الباب قالت له مودعة:

ـ سأفتقدك يا جوليان. قد تكون خروفاً اسود في قطيع ابيض ولكني اعتقد انك من افضل الناس خلقاً.

احنى رأسه وقبل جبينها بلطف بالغ وما هي الا لحظات حتى كانت سيارته البراقة تنطلق بعيداً كالسهم.

بعد بضعة ايام، وبعد ان اعادت الاطفال الى المأوى لفروغهم من درس السباحة بعد عصر صاخب امضته معهم، دعتها الآنسة بكستون الى العشاء. ولما انتهيا من تناول الطعام جلستا على الشرفة فقالت لها آنا:

ـ لقد قمت بعمل انساني يتقاعس عنه معظم الناس. على فكرة، لقد تخلف طوم عن زيارته الصباحية المعتادة. سيأتي غداً على

الارجح. هل رأيته مؤخراً؟

فقالت فيفيان متظاهرة بالعفوية:

ـ لم اره منذ سهرة العشاء.

ـ هناك رزمة كنت اعتزم ارسالها اليه مع البستاني، فهل لك ان تؤدي لي خدمة وتوصليها الى بيته في طريق عودتك؟

وافقت فوراً اذ لم تجد مبرراً للرفض.

لكن حين عبرت البوابة ورأت سيارته متوقفة امام المدخل اخذ قلبها يخفق بانفعال. تركت المحرك دائراً وترجلت من سيارتها وفيما هي تصعد الدرج خرج الخادم. فاعطته الرزمة. ولما استدارت عائدة فاذ بها تسمع صوتاً مألوفاً ينادي:

ـ لم كل هذه العجلة؟

ـ طلبت الي الآنسة بكستون ان اوصل لك رزمة. ولم اجد ضرورة لازعاجك شخصياً.

ـ انت لا تزعجينني. تفضلي واشربي شيئاً.

فتح باب السيارة فقالت متلعثمة:

ـ كلا الوقت متأخر، يجب ان اعود. ارجوك، انا...

ـ اذا قدت السيارة بسرعة وذعر فقد تصطدمين باول شجرة. ادخلي.

تهدلت كتفاها وترجلت وهي تتنهد مستسلمة. ثم سألها وهما يدخلان غرفة الجلوس:

ـ هل تسلمين الرزم دائماً وكأنها قنابل موقوتة؟ اجلسي قبل ان تسقطي ارضاً. لم كل هذا الذعر؟

ـ لست مذعورة. كل ما في الأمر اني لم اعتزم القيام بزيارة رسمية من اجل تسليم رزمة.

رفع حاجبيه ولم يعلق. بعد قليل دخل الخادم بصينية شراب وطبق من الساندويش.

وقال طوم:

- لحم بقري بارد. فاتني اليوم طعام الغداء. هل انت جائعة؟

هزت رأسها نفياً واخذت ترشف شرابها المثلج، فيما انهمك هو في الطعام. تلفتت حولها تتفحص الغرفة وقد تغلب الفضول على اضطرابها.

بدا واضحاً ان البيت يخص رجلاً عازباً لخلوه من اية لمسة انثوية. وباستثناء رفوف الكتب المتكئة على احد الجدران وكدسات الأوراق والمجلات على الطاولة لما اختلف المكان عن غرفة في فندق. لم تكن هناك زهور او وسائد او صور او زينة باستثناء مدى محلية الصنع معلقة على الجدار المقابل للكتب.

جرع طوم كأساً اخرى من الشراب فلاحظت شعره المشعث والظلال القاتمة حول فمه. ثم رأته يمرر يده على عينيه وكأنه مصاب بصداع. قالت بصورة عفوية:

- تبدو متعباً.

- كان يوماً حافلاً بالجهد. ثلاث ولادات، تحطم دراجة نارية وفوق كل ذلك حادث انتحار.

ابتسم لها فترنح قلبها ونسيت لقاءهما البارد الأخير. بدا متعباً واحدث سناً واكثر ليونة، مما ازال حواجز دفاعها وجعلها تسأله باسترخاء:

- ماذا انجبت الامهات، ذكوراً ام اناثاً؟

- كلهم ذكور... لا تسلي عن فرح آبائهم! احدى الامهات استعصت عليها الولادة فنقلتها الى المستشفى واظنها ستتخطى مرحلة الخطر.

تقدم الى الاريكة حيث تجلس وقدم لها لفافة ثم جلس الى جانبها. فاستطاعت ان تشم رائحة المطهرات على جلده.

- وماذا عن الحادثة؟

- انه صبي ارعن كان يقود دراجته بسرعة رهيبة، وصادف مروري بمكان الحادث قبل وصول الاسعاف. انه سينجو على

الارجح. اما الفتاة التي انتحرت فقد تأخرنا في اسعافها.

سألته بوقار:

- لماذا يقتل الناس انفسهم؟ لا بد ان الانتحار يتطلب شجاعة فائقة.

- شجاعة او يأس. انها نهاية بشعة. هذه الفتاة في الخامسة عشرة. خسارة، كان بامكان آنا ان تساعدها وتعتني بأمرها.

اشاحت رأسها بعيداً. انها لا تنفعل بسهولة لكن تفكيرها في وصول تلك الفتاة الى حضيض التعاسة ولجوئها الى الموت كمهرب وحيد اشعرها بمأساوية الشباب والأمل، فسد الألم حلقها وارتجفت شفتاها.

ادارها طوم صوبه وهتف:

- فيفيان! لا تبكي يا عزيزتي. آسف. لم اقصد تكديرك.

صوته القلق ولمسته الحانية اثرا فيها جداً فألقت رأسها على كتفه وراح هو يمسد شعرها ويهمس لها مطمئناً. فحزنها العميق على الفتاة الميته اطلق عواطف حياتها الماضية المكبوتة وعجزت عن التحكم برد الفعل الذي اجتاحها. وفي الأخير سكنت عاصفة عذابها وحل مكانها احساس رائع بالارتياح والاسترخاء.

ناولها منديلاً كبيراً من الكاكي فمسحت به دموعها واطلقت تنهيدة طويلة. استكانت الى صدره العريض وحين سمعت دقات قلبه المنتظمة تصاعدت في داخلها موجة هناء رائعة.

- اتشعرين الآن بتحسن؟

اومأت برأسها فأبعدها بلطف حازم فاذ باحساسها السعيد يخبو فجأة وينتابها حرج شديد من تصرفها الفاضح. احترقت وجنتاها وقالت بصوت مختنق:

- آسفة جداً.

تطلع اليها بنظرة لم تفهمها وقال بهدوء:

- ليس هناك ما يستوجب اسفك.

- ينبغي ان اذهب. تأخرت كثيراً.

نهض واقفاً ولم يحاول اقناعها بالبقاء. ثم قال وهما يتوجهان الى السيارة:

- كان يجب ان تأتي بكنزة. فطقس الليل بارد.

- لا عليك. سأكون بخير.

جلست خلف المقود وادارت المحرك فسألها:

- امتأكدة من استطاعتك اجتياز الطريق الوعر في الظلام؟

- اجل، لقد اجتزته عدة مرات من قبل.

- شكراً على ايصال الرزمة.

انحنى الى الأمام فاحست للحظة بدفء يده الضاغطة على ذراعها ثم تمنى لها ليلة سعيدة وعاد الى البيت.

بعد حوالي ربع ساعة كانت تجلس في غرفة المكتب تحتسي شراباً ساخناً حين رن الهاتف في الردهة. سمعت تشن يرد على المكالمة وتساءلت عمن يمكن ان يخابر في هذه الساعة المتأخرة. اطفأت النور وخرجت الى الردهة فيما كان تشن يعيد السماعة الى مهدها. سألته:

- من الذي خابر؟

- الطبيب يا سيدتي. اراد ان يطمئن الى سلامة وصولك.

- اوه... فهمت. ليلة سعيدة يا تشن.

- ولك ايضاً يا سيدتي.

صعدت الى غرفتها وجلست الى طاولة الزينة تضع المساحيق المسائية على وجهها. ابتسمت لصورتها في المرآة وقد غمرها فرح مفاجيء.

٦ - غادر جوليان المعسكر بسرعة جنونية جعلت فيفيان تتمسك بطرف المقعد. ولما بلغا الطريق العام زاد من سرعته. وفجأة اوقف السيارة واطفأ المحرك...

قبل ساعات من موعد حفلة الجيش صعدت فيفيان لتستريح في غرفتها، ولم تقدر ان تغفو لكثرة هواجسها، فاخذت تقرأ كتاباً عن القبائل القديمة التي تعيش في الادغال الكثيفة الواقعة في شمال موبينغ وغربها. انهت الفصل الأول ثم وجدت نفسها عاجزة عن استيعاب السطور فوضعت الكتاب جانباً واستسلمت لأفكارها القلقة.

هل سيحضر طوم الحفلة؟ هذا السؤال كان الباعث على توترها. قال جوليان ان جميع الأشخاص المرموقين سيحضرونها وقد يقرر طوم الا يحضرها لهذا السبب بالذات، ومع ذلك شعرت بامكانية ذهابه نظراً للانسجام الجديد الذي نما بينهما ليلة اخذت له الرزمة.

شعرت بشيء من الذنب لتقبلها رفقة جوليان في حين ان الاستعدادات التي انجزتها بلهفة كانت لصالح رجل آخر. فأملها الواهي بان ترى طوم هناك جعلها تهيء الفستان المعلق في الخزانة كي تبدو جميلة في عينيه... في الصباح غسلت لها كيم شعرها وفوحته مرات عديدة بماء العطر بعد ان اضافت له نوعاً خاصاً من العطر الصيني كي يلتمع كالذهب ويبعث اريجاً ناعماً.

تناولت عشاء خفيفاً في الساعة السادسة ثم استحمت بماء فاتر الحقته بدوش بارد ثم لفت جسمها المتألق بعباءة قطنية وبدأت تزين وجهها.

رشة خفيفة من البودرة، لمسة رشيقة من ظلال العيون، مسحة بسيطة من الزيت الملمع على حاجبيها واهدابها الطويلة الداكنة. هذا كل ما احتاجته لتبرز صفاء بشرتها الملوحة بالشمس. ولما طلت شفتيها بلون زهري ادخلت كيم شريطة فضية في شعرها الأشقر ثم عقصته بشكل تاج.

وقالت فيفيان مبتسمة:

ـ الآن جاء دور الفستان.

قهقهت الوصيفة بانفعال وهرولت الى الخزانة فأخرجت منها الثوب الذي صممته فيفيان بنفسها. كان من الشيفون الأبيض المهفهف، صدره مفصل ببساطة كبلوزة اغريقية، وتنورته كثيفة الثنايا استهلكت اثنتي عشرة ياردة من القماش. اما الخصر فيلفه وشاح عريض من الشاش المرصع بالفضة صنع مدينة بنارس.

زينت فيفيان عنقها بعقد الجاد وتأملت شكلها في المرآة. تراءى لها، لوهلة اولى، انها تواجه فتاة غريبة اذ بدت اطول قامة وذات نحول اثيري، فيما تألقت عيناها بخضرة تحاكي الجاد الذي يزين عنقها.

انتظرت وصول جوليان وسألها وهو يجلسها داخل السيارة:

ـ ملهوفة؟

ـ جداً. اشعر كسندريلا.

ـ اذن ارجو الا تختفي في منتصف الليل فالحفلة قد تمتد حتى الفجر.

عندما دخلا بوابة المعسكر رأت ان سرادقاً ضخماً قد اقيم خارج مطعم الضباط، وقد زين باضواء ساحرة وقناديل ملونة.

استقبلهما عند مدخل السرادق الكولونيل ميتلاند وهو رجل طويل القامة شائب الشعر ولم تجد فيفيان اي شبه بينه وبين ابنته الرائعة الحسن. قادهما احد الجنود الى مائدة، وفيما انشغل جوليان بطلب الشراب تلفتت حولها تتفحص المكان. الأعمدة ملفوفة بأوراق

النخيل وكل مائدة مزينة بزهور استوائية. اما الضباط فيرتدون سراويل سوداء ضيقة واحزمة قرمزية عريضة وسترات بيضاء قصيرة تحمل شارات ذهبية.

كان هناك عدة اشخاص صينيين رفيعي المقام يجلسون الى مائدة الكولونيل في اثوابهم الرسمية، وفيما بدت السيدات الاوروبيات في فساتين سهرة عصرية ظهرت الصينيات في اثوابهن الوطنية المطرزة. اما الهنديات فكن يرتدين الساري الجذاب. سألها جوليان عن رأيها فيما ترى فقالت:

ـ انها رائعة. اشعر فعلاً اني سندريلا اخرى، اذ لم احضر من قبل احتفالاً راقصاً كهذا.

ـ هل نرقص؟

ـ اجل، فلا اريد ان اضيع دقيقة من الوقت.

اتجها الى قاعة الرقص حيث تعزف فرقة الجيش فلم تلحظ نظرات الاعجاب التي لاحقتها. لكن جوليان فطن لها ولذا انطوت لمسته على شعور بالملكية وهو يدور بها على الحلبة، وقال لها مبتسماً:

ـ اني اشتم رائحة منافسة، ففي اي لحظة، سوف يصطف الشبان المنبهرون بك لينتزعوك مني.

ضحكت اذ حسبته يمزح لكن سرعان ما اتضحت صحة كلامه حين تقدم الى مائدتهما احد معارف جوليان داعياً اياها الى الرقص ثم امضت نصف الساعة التالية تنتقل من رفيق الى اخر، حتى جاء جوليان واستعادها من احدهم. قال لها مداعباً:

ـ ارأيت اني كنت مصيباً؟ لقد وصل اصدقائي. تعالي اعرفك اليهم.

ـ آسفة لأني تركتك بمفردك. لم اقصد ان اهجرك لكني لم استطع التهرب منهم بسهولة.

رد مبتسماً:

ـ اخشى ان تتركي وراءك بعض القلوب المحطمة يا حلوتي.

عرفها الى مجموعة اصدقائه ، وفيما كانت تتحدث مع روس وليزا كارتر ، وهما زوجان شابان يملكان مزرعة مطاط في ضواحي موبينغ الشمالية ، خيم صمت مفاجىء على السرادق فاستدارت الرؤوس نحو المدخل كما لو ان قوة مغناطيسية جذبتهم.

كانت كارا ميتلاند تجول بعينيها الزرقاوين في المكان المكتظ وتواجه الجمهور المنسحر بوقفة دراماتيكية متأنية ثم ابتسمت لرفيقها واتجهت الى مائدة والدها.

وهنا اخذ الجميع يتكلم دفعة واحدة فقالت ليزا كارتر باعجاب:

ـ يا له من ثوب!

وقال زوجها:

ـ يا لها من فتاة!

التفتت فيفيان الى جوليان فاذ به يشعل لفافة.

فتحت مروحتها العاجية وحدقت اليها تفكر. تستطيع بدون ان ترفع رأسها ان تتذكر مظهر كارا بالتفصيل... ثوب الحرير الارجواني الملتصق بقوامها الرائع والذي لا تجرؤ على ارتدائه الا امرأة فائقة الثقة بنفسها وبشكلها. القرطان المتدليان بألق على عنقها البض، الشعر الأسود المسحوب عن جبينها الأملس والشفتان الفاقعتان الحمرة والمنفرجتان عن ابتسامة ساخرة.

في الحادية عشرة بلغت الحفلة اوجها، ومع مرور الدقائق بدأت فيفيان تفقد الأمل بمجيء طوم. حاولت اقناع نفسها بانه قد استدعي، ربما لزيارة مريض، وبذلت جهداً لمشاركة الآخرين لهوهم ونكاتهم.

وما بين رقصة واخرى اقترحت ليزا كارتر ان تستريحا قليلاً فوافقتها فيفيان وذهبتا معاً الى غرفة التواليت.

اخذتا تصلحان زينتهما فخاطبتها ليزا بصراحة وصدق:

ـ لقد فوجئت بك الى حد ما، فانت تختلفين تماماً عن صديقات جوليان.

ـ لست صديقة حميمة له بل مجرد صديقة عادية.

ـ هذا ما قصدته.

ـ ليزا، انا لا احب التدخل في ما لا يعنيني لكن جوليان يقلقني احياناً.

ـ من اية ناحية؟

ترددت فيفيان لحظة لخشيتها من مغبة المصارحة لكن ميلها العفوي الى الفتاة اشعرها بانها اهل للثقة. فأضافت دون مواربة:

ـ اعتقد انه يحب كارا ميتلاند.

ـ انت ذكية، فمعظم الناس لا يفهمون حقيقة جوليان ويظنونه قاسي المشاعر. اوه، كان في الماضي شاباً لعوباً... والى ان التقى كارا.

ـ ماذا حدث حينذاك؟

اشعلت ليزا لفافة وقالت وهي ترقب تصاعد الدخان:

ـ كنت في النادي ليلة التقيا، وبدا وقتها كما لو انه ضرب على رأسه بهراوة، كذلك بدت كارا. ظلا طوال السهرة يحدقان الى بعضهما البعض. بعد ذلك اكتسب انجذابهما كل اعراض الحب المحموم. جاء بها مرة الى مزرعتنا وقضيا النهار يهاجمان بعضهما بعضاً ويتبادلان نكاتاً لاذعة اقلقت زوجي لفرط حدتها وهو عادة لا يلحظ انفعالات الناس الداخلية. لم يكن يبدو عليهما حبهما المجنون لبعضهما الا حين يظنان ان الآخرين لا ينظرون صوبهما.

توقفت ونفضت رماد لفافتها فسألتها فيفيان:

ـ ثم لماذا...؟

ـ لماذا افترقا؟ لان كليهما لم يجرؤ على الظهور بمظهر الاحمق، فكلاهما معروف بحبه للهو والعبث، جوليان يتبجح دائماً بانه عازب خالد وكارا تسلي نفسها برفقة الشبان ولا تلبث ان تتركهم حالما تضجر منهم. وحين وقعا اخيراً في الحب الحقيقي لم يجرؤا على الاعتراف به خشية ان يقلب احدهما الطاولة على الآخر.

فهتفت فيفيان:

ـ هذا تصرف جنوني، فلا بد انهما ادركا حبهما العميق لبعضهما البعض.

ـ اشك في ذلك، فمن الصعب على الرجل العابث ان يعترف بالحب لخشيته من الاصابة بخيبة. ومن جهة كارا، تصوري نفسك واقعة في حب رجل لا يعطيك اية دلالة على حقيقة شعوره نحوك، فهل تجدين الجرأة على مصارحته بحبك لمجرد الظن بانه يبادلك هيامك؟

فقضمت فيفيان شفتها وقالت:

ـ لا اعتقد ذلك انما الرجال هم الذين يبادرون عادة بالمصارحة.

ـ صحيح لكن بوسع المرأة ان تعطي الرجل دلالة واضحة على انها ستتقبل حبه، في حين ان كارا حجبت مشاعرها عن جوليان.

ـ الا يمكنك ان تخبريه؟

ـ لن يصدقني ابداً. انهما يحتاجان الى مواجهة كارثة للاقرار بالأمر الواقع. اذا حوصرا مثلاً في بناية محترقة فقد يسارعا الى الاعتراف، وباستثناء ذلك لا يمكن لأحد ان يساعدهما على مواجهة الحقيقة.

عادا الى الطاولة فوجدا الخدم يقدمون سلطات باردة ومعجنات بالكاري والنقانق وكلها مصنوعة في مخبز المعسكر. وفيما كانت تتناول بوظة الاناناس بلا شهية سمعت صوتاً يقول:

ـ مساء الخير. هل لي ان اجلس واياكم؟

فأزاح جوليان كرسيه ونهض يقول:

ـ مرحبا يا سترانسوم. سمعت انك خارج البلدة.

كادت البوظة ان تنسكب على حضن فيفيان لعظم المفاجأة فحياها طوم بهدوء وردت له التحية بصوت مهتز فيما راح قلبها يهدر بين ضلوعها.

قالت له بخفة حين جلس الى جانبها وجاءه النادل بصحن سلطة:

ـ لم احسب انك ستأتي.

فقال وهو ينظر باعجاب الى شعرها وثوبها وكتفيها الناعمتين:

ـ احقاً؟ كنت خارج البلدة، كما قال باركلي، لكني استطعت العودة لحضور الاحتفال. هل تستمتعين بالسهرة؟

ـ كثيراً.

كل ما هيأت في ذهنها من عبارات سلسة تقلصت فجأة. انحنى الى الأمام ليتناول قطعة خبز فاختلست النظر اليه ولاحظت ان سترته البيضاء تبرز سمرته الغجرية. قال لها:

ـ البوظة بدأت تسيل في صحنك.

ازاحتها جانباً وقد فقدت شهيتها. خاطبها جوليان فأجابته آليا. روى احدهم نكتة فشاركت في الضحك. كانت اشبه بممثلة تؤدي الدور المطلوب منها فيما قلبها يضرب جوانب صدرها لفرط احساسها بوجوده قربها.

اخيراً، عادت الفرقة الى العزف فدعاها روس كارتر الى الرقص ثم رقصت مع جوليان ورجلين اخرين قبل ان تتحول الفرقة الى مقطوعة فوكستروت ويسألها طوم:

ـ هل تسمحين لي بهذه يا فيفيان؟ من بعد اذنك يا جوليان.

اجاب الشاب ملوحاً بحركة قبول مبالغ فيها:

ـ بالطبع يا صديقي.

كانت الحلبة مزدحمة فقربها طوم الى صدره، وبرغم الحر احست بجفاف يده وبقبضته الحازمة على يدها. رقصا في صمت واغمضت عينيها مستسلمة للايقاع المتهادي.

لما انتهت المعزوفة ظل ممسكاً بيدها وقادها عبر باب يفضي الى حديقة خلفية. جلسا على اريكة من الخيزران وقدم لها لفافة. وفي ضوء الولاعة التقت عيناه الضيقتان الغامضتان بعينيها المفعمتين رقة وبهجة.

ـ تبدين الليلة غاية في الجمال.

فأجفلت بحيرة وتسارعت انفاسها. كم من المرات تساءلت عما سيكون شعورها اذا خاطبها يوماً بهذه النبرة المميزة، والآن حدث ذلك، فشعرت بخوف مفاجىء، كالذي انتابها ليلة حاول جوليان اثارة عواطفها، لكن هذا الخوف اشد حدة والحاحاً.

ضغط على كتفها ضغطة خفيفة وسألها هامساً:

ـ فيفيان، هل انت طفلة ام امرأة؟

انقشعت الغيمة التي كانت تحجب القمر ففاضت الحديقة بوهج باهت. قال بلطف:

ـ لا احسبك تعرفين نفسك. خير لنا ان نعود قبل ان يتساءل رفاقنا عن مكاننا.

مس كتفها مرة ثانية ثم ساعدها على النهوض فانتهى بذلك لقاؤهما القصير.

رافقها الى الطاولة واستأذن بالانصراف فشعرت فيفيان انها قد فشلت في التغلب على عقبة مهمة... هل انت طفلة ام امرأة... تردد السؤال في ذهنها وتساءلت عن مقصده؟ كيف كان عليها ان تجيبه؟

وسمعت جوليان يستوضحها:

ـ تبدين مكتئبة يا حلوتي. ماذا قال لك سترانسوم حتى تكدرت الى هذا الحد؟

ـ لا شيء... لا شيء بتاتاً. ارغب في احتساء شراب بارد.

رفع ابريق الشراب وملأ كأسها ففاض السائل على مفرش المائدة. اعتذر منها وجفف اللطخة بفوطة السفرة. لاحظت ارتجاف يديه وهو يشرب كأسه ويملأ آخر.

رفعت ليزا حاجبيها ورمقت فيفيان بنظرة ذات معنى. ثم وقف وامسك برسغ فيفيان داعياً اياها الى الرقص.

فكرت انها اذا استطاعت ان تبقيه نصف ساعة على الحلبة فقد تجنبه الوقوع في وضع حرج، انما، لسوء الحظ، التقيا كارا ميتلاند

ورفيقها عند باب قاعة الرقص. املت ان يقتصر اللقاء على تحية عابرة الا ان كارا خيبت رجاءها حين قالت لجوليان وهي تبتسم له باشراق:

ـ جوليان! اين كنت تخبىء نفسك؟ لقد تفاجأت الآن بوجودك هنا.

ثم التفتت الى فيفيان قائلة:

ـ مساء الخير يا آنسة كونيل. هل لي ان اعرفك الى الكابتن ساندفورد؟ انحنى لها الرجل الطويل العريض المنكبين وقال:

ـ كنا في طريقنا الى المقصف. هل ترافقاننا اليه؟

قبل جوليان الدعوة بسرعة وشقوا طريقهم وسط الزحام الى المقصف المجاور لقاعة الرقص. كان الجو عابقاً بدخان اللفائف واضطروا الى الوقوف لعدم وجود مقاعد شاغرة.

طلبوا شراباً، وسرعان ما اخلي كرسي، فجلست كارا عليه وادخلت لفافة في مقبض مرصع بالماس. بادر الرجلان الى اخراج ولاعتيهما فسبقه جوليان الى ذلك. شكرته كارا وهي تضع اصابعها البضة حول رسغه لتثبت اللهب فرأت فيفيان عضلات فكه تتقلص.

الدقائق العشر التالية كانت عذاباً بالنسبة اليه اذ عمدت كارا، بقسوة واضحة، الى مغازلة الكابتن ساندفورد، حيث شبكت ذراعها بذراعه ورمقته بنظرات مغرية وهي تناديه «حبيبي جيمي» كلما خاطبته. كان اداء بارعاً، من شأنه ان يقنع مطلق شخص غريب بانها مغرمة به فعلاً، ويجعله يتساءل في الوقت نفسه عما يجذبها الى رجل يخلط كلامه بقهقهات سخيفة مجلجلة.

اخذت فيفيان تراقبهم واستغربت عجز جوليان عن استشفاف تصرف كارا المخادع، ثم خشيت ان يفقد اعصابه اذا استمرت هذه التمثيلية وان يصب جام غضبه على الكابتن الغافل عن الدافع الحقيقي الى مغازلات كارا المداهنة. امسكت بيده غريزياً فاحست انه غير شاعر بوجودها مع انه ضغط على يدها وابتسم لها باقتضاب،

وهتفت كارا:

- حبيبي جيمي، انهم يعزفون اغنيتنا. تعال نرقص.

تقلصت يد جوليان بعنف فكادت فيفيان ان تصرخ ألماً. ثم قالت حالما انصرفا:

- هل لنا ان نخرج قليلاً من هذا الجو الخانق؟

حدق اليها بدون ان يبصرها فأخذتها الشفقة عليه وقالت لتخفف غضبه:

- انها ما تصرفت هكذا الا لتثير حنقك يا جوليان.

- ماذا تقصدين بحق الشيطان؟ وهل يهمني اذا ارتأت ان تقذف نفسها على ذلك الحمار المغرور؟

طلب كأساً اخرى من الشراب ولما حذرته من مغبة ذلك صرخ فيها:

- كفي عن النق بحق السماء! انا ادرى منك بمصلحتي.

بدأ الناس يرقبونهما بفضول وتصورتهم فيفيان يتهامسون بخبث وشماتة. قالت له بصوت منضبط:

- عن اذنك. سوف اعود الى السرادق.

- آسف يا فيفيان، لقد جرحتك.

- لا بأس.

قاربت الساعة الثانية صباحاً فبدأ المدعوون ينصرفون تباعاً. ثم قال الزوجان كارتر انهما سيذهبان بدورهما، كذلك اقترح جوليان ان ينصرفا ايضاً مما اثار استغرابها.

سألتها ليزا عندما دخلتا غرفة التواليت لاسترداد دثاريهما:

- أأنت متأكدة انك ستكونين في امان؟ اخشى عليك من تهور جوليان في قيادة السيارة. بوسعنا ان نوصلك نحن الى البيت.

- اظنه سيغضب ان ذهبت معكما، ويبدو الآن اهدأ حالاً.

غادر جوليان المعسكر بسرعة جنونية جعلت فيفيان تتمسك بطرف المقعد، ولما بلغا الطريق العام زاد سرعته فخطر لها ان تطلب

اليه تخفيفها لكنها فضلت الا تشوش تركيزه على القيادة. بعد قليل بدأ هدير المحرك ووهج الأضواء الأمامية يحدثان فيها تأثيراً مخدراً فأغمضت عينيها. وفجأة توقفت السيارة فرمشت اهدابها وسألته:

- هل وصلنا البيت بهذه السرعة؟

اطفأ جوليان المحرك وقال باسترخاء:

- فكرت ان ننهي السهرة باحتفال خاص.

نظرت من النافذة فرأت السيارة متوقفة في مرآب غريب ادركت انه بيته.

- هل انت جاد في دعوتي الى زيارة بيتك في الساعة الثانية والنصف صباحاً؟ ماذا دهاك يا جوليان؟

- ومن سيعلم بالأمر؟ انسي تحفظك يا حبيبتي.

جذبها اليه وحاول معانقتها، فانتزعت نفسها من قبضته الخشنة ثم فتحت الباب وقفزت مهرولة على الطريق.

تبعها جوليان وحاول الامساك بذراعها فهتفت وهي تتراجع:

- لا تلمسني من فضلك.

- اتواجهين مشكلة؟

استدارا معاً وقد اجفلهما الصوت الثالث الذي انبعث فجأة من الفضاء. ثم خرج شخص طويل من ظل شجرة وسمعا طوم سترانسوم يسأل ببرود:

- هل يزعجك باركلي؟

فانفجر جوليان هاتفاً:

- اسمع يا سترانسوم. لقد تحملت منك الكثير هذه الليلة. ما هدفك من التسلل الى حديقتي كصعلوك؟

تجاهله طوم وقال لفيفيان:

- سآخذك الى بيتك.

فزعق جوليان ثائراً:

- ايها الشيطان! لقد حاولت احتكارها في الحفلة والآن تجرأت على

المجيء الى هنا. انت نذل حشري في رأيي، وهذه المرة تخطيت حدودك هيا، اخرج من هنا فورا!

قذف طوم لفافته في القناة ولمعت عيناه كالفولاذ. قال لفيفيان دون ان ينظر اليها:

ـ هل لك ان تذهبي وتنتظريني في السيارة؟ لن اتأخر كثيراً.

اوشكت ان تمتثل لطلبه لكن جوليان قفز فجأة الى الأمام ليسدد لكمة عنيفة الى رأس طوم الذي تفادى الضربة بساعده الأيسر ولكم فك جوليان بضربة رشيقة وكأنه يتعامل مع تلميذ هستيري.

ترنح الشاب لحظة ثم تهاوى متأوهاً فأسنده طوم وقال لها:

ـ لا بأس. لم يتأذ. اذهبي وانتظريني في السيارة.

بعد دقائق خالتها ساعات خرج طوم من البوابة واقبل صوبها... هل سيلومها على الحادثة ويؤنبها بتهكمه اللاسع كما فعل في مناسبتين سابقتين؟

لكن، حين صعد الى جوارها واضاء نور السيارة الداخلي، لم تر على وجهه تلك النظرة المعنفة التي توقعتها بل قال مبتسماً:

ـ آسف لأني فعلت ذلك على مشهد منك.

ـ اهو بخير؟

ـ اجل، لكنه مضعضع. خادمه سيعتني به. وماذا عنك انت؟

ـ انا بخير. كيف صادف وجودك هنا؟

ـ خطر لي انه قد يتمادى معك فلحقت بكما.

ـ يسرني انك فعلت اذ افزعني السير في الظلام.

صمتا بعد ذلك ولدى وصولهما البيت اوقف طوم السيارة وقال ناظراً الى ساعة يده:

ـ انها الثالثة تقريباً. هل تأذنين بدخولي دقيقة او اثنتين؟

اومأت برأسها.

كانت الردهة مضاءة وقد ترك تشن على العربة طبقاً كبيراً من الساندويش وتيرموس قهوة. اقترحت فيفيان ان يخرجا الى الحديقة

فتبعها طوم وهو يجر العربة. ثم سألته بصوت خفيض:

ـ هل تظن اني سأوقظ الجميع اذا ادرت النوافير؟

ـ لا اظن ذلك.

فتقدمت من الزر الكهربائي على الجدار ولمسته.

مرت لحظة صمت تبعها حفيف ثم حلق رذاذ النوافير كماس يتوهج في ضوء القمر.

جلسا على الأريكة الهزازة فقالت حين شرع طوم يسكب القهوة:

ـ اذا جلس المرء امام نافورة فسرعان ما ينسى مشاكله مهما كانت مقلقة. وهذا العلاج، هو ارخص بالطبع من الذهاب الى طبيب نفسي.

فرد طوم مبتسماً:

ـ انت سعيدة في هذا البيت، اليس كذلك؟

ـ اجل، انما اعتقد انه من الحمق ان اتمادى في السعادة واتجاهل التفكير في المستقبل الى اجل غير مسمى. لا يمكنني ان اظل فراشة لاهية الى الأبد.

غمغمت:

ـ يخامرني شك بانك تحبذ وجود المرأة داخل البيت.

ـ اعتقد ان البيت هو المكان الطبيعي للنساء.

ـ هل تقصد انه يتوجب عليهن ان يلائمن اوضاعهن مع خطط ازواجهن حتى لو تعارض ذلك مع مشاريعهن الخاصة؟

اشعل لفافة وقال:

ـ اجل، في وضع كهذا على المرأة ان تقدم عمل زوجها على عملها، فالرجل هو الشريك الأقوى مركزاً بين الاثنين، وهذا المبدأ يعود الى الأزمنة البدائية عندما كان الرجال صيادين ومحاربين، واذا انكرنا هذا المبدأ نوجد العديد من الصراعات المضرة.

ـ أليس هناك مجال للتسوية في عصر الحضارة والرقي؟

ـ اجابها بجمود:

- لا يجب ان تكون هناك اية حاجة لتسوية، لأن المرأة لا تعارض قرارات زوجها المهمة اذا كانت علاقتهما صحيحة ومتينة بل تقنع بدورها الانثوي وتتركه يقود المسيرة. اظنك تعتقدين انها وجهة نظر عتيقة؟

فهزت رأسها قائلة:

- بل اوافقك عليها.

بقيا لوهلة طويلة يحدقان الى بعضهما بعضاً. وبيطء شديد امسكها طوم من رسغيها وجذبها اليه.

- سيدتي! سيدتي!

ايقظها الصوت كضجيج بعيد، ولم تع شدة الحاح النداء الا حين ارخى طوم يديها فجأة. وفي اللحظة نفسها رأت تشن يهرول صوبهما آتياً من جناح الخدم. كان يزرر سترته فيما بدا شعره الأملس مشعاً، وبالرغم من هرولته لم ينس ان ينحني لهما قبل ان يقول:

- اعتذر عن ازعاج السيدة في هذه الساعة...

فقال طوم بحزم قاطعاً عليه مقدمته:

- ما الأمر؟

- وقعت حادثة في المستوطنة يا سيدي. هناك فتاة متضررة والناس يحتاجون المساعدة.

فسارع طوم الى نزع سترته وحزامه وقال مصدراً التعليمات اليهما معاً:

- فيفيان، اركضي واحضري حقيبتي من السيارة. وانت يا تشن خذني الى بيت الفتاة وستلحق بنا السيدة في ما بعد.

رفعت فيفيان ذيل فستانها وركضت عبر البيت ولما عادت الى الحديقة حاملة الحقيبة لم تجد فيها احداً فهرعت صوب الدرب الضيق الذي يؤدي الى المستوطنة.

لم تجد صعوبة في ايجاد البيت لان الاهالي تجمعوا امامه. افسحوا لها الطريق لدى وصولها فدخلت الغرفة الوحيدة ذات الأرضية

الترابية والجدران المصنوعة من القش. كانت المصابة، وهي طفلة ملاوية في الثانية عشرة من عمرها، ترقد على سرير رخيص متداع بين والديها من جهة، وبين طوم من الجهة الاخرى، اما سائر العائلة فيجثون على مقربة فيما وقف تشن عند مؤخرة السرير يحمل مصباحاً زيتياً.

لما وصلت فيفيان خاطب طوم الخادم الأول بالكانتونية ثم ناول تشن المصباح لوالد الفتاة وغادر البيت مسرعاً.

بعد ذلك خاطب طوم والديها فلم تفهم فيفيان كلامه لكنها رأت في اعينهم خوفاً، ثم ولولت الأم وجثت على ركبتيها تتمتم شيئاً كالصلاة.

في الأخير استدار طوم الى فيفيان وقال متناولاً منها الحقيبة:

- ارسلت تشن الى البيت ليخابر المستشفى كي يرسلوا سيارة اسعاف فالفتاة كما ترين مصابة بحروق عميقة. لقد وصلت في الوقت المناسب واوقفتهم عن دهن حروقها بالشحم. لا يمكننا ان نعالج صدمتها قبل وصول الاسعاف فالاغطية قذرة واخشى من تسرب الجراثيم الى جسمها. هل لك ان تحملي المصباح عن والدها؟ قد يسقطه من يده لفرط جزعه.

كان يتكلم ويخرج من حقيبته شاشاً معقماً ليغطي به اماكن الاحتراق، وحالما لامس جلد الفتاة صرخت متأوهة ونز العرق من وجهها المتقلص وهي تغرز يديها النحيلتين في فراش القش.

خاطبها الطبيب بالملاوية فحدقت اليه برجاء اخرس. جس نبضها فرأت فيفيان فمه يتقلص. متى يصل الاسعاف؟

لقد تحول لون الفتاة الى شحوب رمادي وازرقت شفتاها واصبحت تتنفس ببطء ووهن، كذلك بدأت ترتجف بالرغم من الجو الرطب داخل الكوخ والتماع العرق على جبينها.

جس طوم نبضها ثانية ثم مسح القسم الأعلى من ساعدها بسائل مطهر وحقنها بدواء مسكن. رفرف جفناها واطلقت تأوهاً اخيراً

وبعد ذلك ارتخى جسمها بفعل العقار.

في الأخير سمعت فيفيان الناس في الخارج يهرجون بانفعال وتلا ذلك هدير محرك فغمرها الارتياح. بعد خمس دقائق انتهى كل شيء اذ نقلت الفتاة الى سيارة الاسعاف ورافقها والدها وطوم الى المستشفى.

قبل الظهر رن التلفون فركضت فيفيان الى الردهة والتقطت السماعة:

- موبينغ ٤٣.

- فيفيان؟ انا طوم.

- اوه، يسرني انك خابرت. كيف الفتاة؟

- اظن انها ستنجو.

- رائع! هل عرفت كيف حصلت الحادثة؟

بدأ يخبرها ثم سمعته يكلم شخصاً الى جواره وعاد بعد ذلك ليقول لها:

- اعتذر عن قطع الحديث. لا يمكنني ان اشرح لك الآن. خابرتك لادعوك الى حفلة زفاف ملاوي هذه الليلة ان لم تكوني متعبة.

قفز قلبها فرحاً وقبلت الدعوة بلهفة.

- اتفقنا. سأمر عليك في الساعة الرابعة. الى اللقاء.

سمعت اقفال خطه فغمغمت مبتهجة: الى اللقاء...

حمل بريد الصباح رسالة من انكلترا وجدت فيها فيفيان ثلاث صفحات بخط خالتها الصغير. استغربت لهجة الرسالة الاسترضائية لكنها احست، من خلال السطور، ان خالتها قد اكتشفت الآن قيمتها كخادمة كانت تساعدها مجاناً ولذا صارت تخاطبها بتودد وهدوء اعصاب. وضعت الرسالة جانباً لتجيب عليها في وقت لاحق وتوجهت الى المستوطنة حيث زارت والدي الفتاة

المصابة. لدى عودتها اخبرها تشن ان هناك شخصاً اسمه السيد وونغ جاء من كوالا لومبور لرؤيتها.

لم يضيع السيد وونغ الوقت فاعلمها بلغة انكليزية ممتازة تشوبها لكنة اميركية انه سمع برغبتها في بيع البيت، وبما انه كان يبحث منذ مدة عن مستقر ريفي فهو مستعد لدفع ثمانين الف دولار ثمناً لبيت النوافير السبعة والأملاك المجاورة له.

كتمت فيفيان شهقة استغراب ثم ابتسمت على رغم منها. فقبل ستة اشهر لم تكن تملك شيئاً سوى النفقة الاسبوعية الزهيدة وها هي الآن تواجه رجلاً غريباً يعرض عليها سعراً خيالياً لا يصدق!

ويبدو ان السيد وونغ اخطأ فهم ابتسامتها اذ انه انحنى الى الأمام وقال ملوحاً بيديه البدينتين:

- السعر ليس كافياً؟ حسن؛ سأدفع تسعين الف دولار.

- لكني لم اقرر البيع نهائياً يا سيد وونغ، ويجب ان استشير محامي الخاص قبل التفكير بعرضك.

- بالطبع، بالطبع، فكري على مهلك.

بعد نصف ساعة، غادر الضيف في سيارة كاديلاك توركوازية يقودها سائق في بزة رسمية، وبادرت فيفيان الى ارتداء ثوب سباحة وقصدت الحوض. فكرت في المقابلة الغريبة وهي تعوم في الماء الدافىء وكان السيد وونغ قد قدم لها بطاقة عمل انيقة علمت منها انه يملك حديقتي ملاه وفندقاً وثلاث دور للسينما.

فكرت لو ان السيد وونغ زارها قبل بضعة اسابيع لكانت ربما رغبت في البيع، اما الآن فكل شيء قد تغير.

جاء تشن في الساعة الثالثة والنصف يعلن قدوم السيد باركلي لزيارتها. خطر لها ان تزعم غيابها عن البيت، اذ لن يضير جوليان ان تقاطعه فترة من الزمن اضافة الى عزوفها عن مواجهته، لكنها ما لبثت ان لانت وطلبت الى تشن ان يدخله.

عندما ظهر باركلي كانت منكبة على كتاب ولم ترفع رأسها الا حين

سعل تشن واعلن وجوده. فقالت بفتور:

ـ مساء الخير. هل لك ان تجلس؟

ظل واقفاً وبدا محرجاً الى حد كادت معه ان تشفق عليه. قال بارتباك:

ـ يؤسفني ان ازعجك لكني اردت الاعتذار عن ليلة امس. اني نادم جداً في الواقع على تصرفي الأحمق والدنيء.

هم بالانصراف فاستوقفته قائلة:

ـ قبلت اعتذارك يا جوليان. هل نحاول ان ننسى ما حصل؟

ـ ايمكنك ان تنسي؟

ـ اظن ذلك.

نظر الى اصابعها المزينة بطلاء مرجاني ثم غطاها بيده وقال بصوت خفيض:

ـ فيفيان... هل ترضين بالزواج مني؟

٧ - وقف جوليان معتذراً مودعاً واذ هما يتعانقان دخل طوم فجأة... ادارت فيفيان رأسها والتقت عيناها نظرة طوم الباردة والمزدرية في آن. وحينما جاء الليل لم تنم بل جلست في غرفتها تنتظر رنين الهاتف.

حدقت فيفيان باستغراب وذهول وقالت بصوت مصدوم:

ـ لا يعقل ان تكون جاداً!

ـ اجل، انا جاد. قد لا تكون لحظة مناسبة تماماً لعرض الزواج، لكني لم اتحقق من مشاعري نحوك الا بعد ما جرى ليلة امس.

ـ وكيف تشعر نحوي؟

ـ ربما انت تؤمنين بالقول المأثور بان الفهد لا يستطيع تغيير رقط جلده... اقر باني لم افكر جدياً في الزواج حتى... حتى ليلة امس، اذ ادركت فجأة كم ستكون الحياة خاوية ان رفضت رؤيتي ثانية... لا اعرف كيف اوضح الأمر جيداً، والحقيقة انك اول فتاة جعلتني اشعر برغبة في الاستقرار. ادرك اني لست عريساً لا ينبغي خسارته يا عزيزتي انما بوسعنا ان نستمتع بالحياة وسأبذل اقصى جهدي لاسعادك.

اخذت تعبث بساعة يدها بحركة عصبية. لقد فاجأها بعرضه غير المتوقع وتحتاج الى وقت لاختيار كلماتها. الجواب بسيط انما التعبير عنه صعب لأن اشياء كثيرة تتوقف عليه. وقالت في الأخير:

ـ جوليان، اخبرتني قبل بضعة ايام انك لا تؤمن بالحب. هل غيرت رأيك؟

ـ لا ادري. ربما كان الحب شيئاً يحتاج الى تعلم وانا لم ارغب من قبل في تعلمه.

www.elromancia.com

- والآن، هل انت متأكد من رغبتك هذه؟

- انت لا تثقين بي ولست متأكدة من صلاحيتي كزوج، أليس كذلك؟ يعلم الله اني تصرفت بشكل لا يدعو الى الثقة لكن ذلك لا يعني اني لن اكون في مستوى الازواج الصالحين ما دام الدافع موجوداً لدي. ولو لم اكن عازماً على اسعادك يا عزيزتي لما طلبت اليك ان تتزوجيني.

- جوليان، كيف يمكنني ان اجيبك وقد فاجأتني بكل ذلك؟

- هل تحاولين افهامي بلطف انك ترفضينني نهائياً؟

- اجل، هذا هو جوابي مع الأسف. الا ترى اننا غير متلائمين بتاتاً؟ انا لست الفتاة التي تناسبك يا جوليان، وفي خلال اسبوع او اثنين ستحمد الله على خلاصك مني.

قال بدفء وهو ينهضها من مكانها:

- ليت كل النساء على غرارك يا عزيزتي.

كان من المتوقع ان ينجم عن رفضها توتر عصبي لكن علاقتهما تبلورت فجأة الى صداقة عميقة ومتفهمة. قال:

- يجب ان ارحل.

بدا من الطبيعي بالنسبة الى كليهما ان يتعانقا ولو للحظة في تعبير اخوي راقي محض واذ بهما يتعانقان، سمعا صوتاً خلفهما فأدارت فيفيان رأسها والتقت عيناها نظرة طوم الباردة والمزدرية في آن، وقبل ان تستطيع التحرك او الكلام استدار على عقبيه وغادر البيت غاضباً.

اندهلت بادىء الأمر ثم احست كما لو ان تياراً كهربائياً قد صعقها حين ادركت معنى انصرافه المباغت. دفعت جوليان جانباً وهرولت الى البيت تعبر الردهة الى الشرفة حيث رأته يصفق باب السيارة خلفه. قفزت على الدرجات دونما وعي وكادت ان تلقي نفسها على مقدم السيارة لتمنعه من الانطلاق. هتفت له:

- طوم! اين انت ذاهب؟

قال بصوت كلسع السوط:

- وهل يهمك ذلك؟

- لكن... الزفاف...

- ماذا عن الزفاف؟

غصت بريقها ثم قالت بتماسك:

- حسبت اننا سنحضر حفل عرس.

اطلق ضحكة خشنة اجفلتها واجاب:

- يبدو ان لديك وسائل اخرى للتسلية يا آنسة كونيل. لا تدعيني الهيك عنها.

اذهلها تعبير وجهه المتوحش. لا يعقل انه ظن...

قاطع تساؤلها صارخاً:

- ابتعدي عن الطريق!

تراجعت الى الوراء آلياً فانطلق بسيارته كالمجنون مثيراً رذاذاً من الحصى آلم قدميها الحافيتين.

نادته لكن صوتها ضاع في هدير المحرك ولم تدر كم من الوقت وقفت تحدق بوجوم الى الدرب الخالي.

هم جوليان باللحاق بها ثم توقف مكانه وراح يقضم شفته مفكراً. وما لبث ان هز رأسه محتاراً واتجه الى سيارته. لو ان اي شخص غير طوم رآها تعانق جوليان لافترض سوء الظن، ومع ذلك صعب عليها ان تتفهم كيف اعتقد طوم انها كانت تشجع جوليان بعد بضع ساعات من لقائهما الدافىء ليلة امس يبدو ان لديه سبباً وجيهاً لعدم الوثوق بالنساء. غمست القلم بالمحبرة الفضية لتكتب له وبدأت تكتب بلهفة محمومة، لكن ذكرى نظرته الزرقاء الجامدة جعلت مهمة شرح الحقيقة مهمة شاقة.

كانت تمزق الصفحة الرابعة عندما قرعت كيم الباب لتخبرها ان الشاي جاهز. اجابتها بانها لا تريد تناوله وتظاهرت بالانكباب على

الطاولة كيلا ترى الوصيفة وجهها. وحين مزقت الصفحة السادسة ادركت استحالة المهمة. كذلك اذا حاولت رؤيته او مخابرته بالهاتف لتشرح له الحقيقة، ستعرض نفسها لمزيد من الاذلال...

وحينما جاء الليل لم تنم بل جلست في غرفتها تنتظر رنين الهاتف. ولما بلغت الساعة العاشرة ولم يخابرها مات املها الضعيف في ان يكون راجع افكاره وندم على استنتاجه الخاطىء. تملكها يأس عقيم وادركت ان قصر سعادتها الرملي قد تهاوى باكمله.

بعد بضعة ايام توجهت الى موبينغ لتبتاع بعض ادوات السباحة لاطفال المأوى. اتمت مهمتها في المتجر ودخلت الى احد المقاهي، وفيما كانت تقلب صفحات مجلة مدعوكة، سمعت صوتاً فاتراً يقول:

ـ هل لي ان اجلس معك يا آنسة كونيل؟

رأت نفسها تواجه كارا ميتلاند. لم تنتظر كارا اذن فيفيان بالجلوس بل طرحت حاجياتها على الكرسي الاضافي وطقطقت باصبعيها تستدعي نادلاً.

لم تقدر فيفيان ان تجد مطلق سبب يدعو كارا الى البحث عنها، وتمنت لو تنزع الفتاة نظارتيها الشمسيتين لتقرأ تعبير عينيها. وقالت كارا برقة:

ـ اذا اردت الصراحة يا آنسة كونيل، فأنا لا اودك.

ـ اوه... لماذا؟

ـ لأنك مخلوقة منافقة، فمن حين مجيئك وانت تتعالين علينا بتصرفاتك، تماماً كما كان يفعل السيد كاننغهام العجوز.

ـ اعتبر ذلك اطراء اذ احب ان يشبهني الناس بعرابي.

ـ قد تستطيعين خداع الرجال انما لا يمكنك ان تنجحي في خداع امرأة لأننا معشر النساء نعرف بعضنا بعضاً.

واضافت:

ـ ان كنت مترفعة فعلاً الى هذا الحد، فلماذا تحاولين استدراج

جوليان باركلي؟

فكرت فيفيان، اذن هذا هو بيت القصيد! لا بد انها بدأت تقلق... ان استطعت ان ابعث فيها مزيداً من القلق فقد احل مشكلة جوليان... قالت لها:

ـ لم يخطر لي انك حارسة جوليان يا آنسة ميتلاند.

ـ لست حارسته لكنه صديق لي ولا اريده ان يقع في شرك فتاة رخيصة تسعى الى ثروته.

ـ وكيف ستثبتين له خداعي يا آنسة ميتلاند؟

ـ لن اجد صعوبة في ذلك، وانا لا اهدد جزافاً.

فعلقت فيفيان بخبث شديد:

ـ ما الذي يجعلك تعتقدين انه سيصدقك ويكذبني؟ قد يكون تلهى بك فترة قبل ان اظهر على المسرح، لكنه لا يبدو شديد الاهتمام بك، أليس كذلك؟

ـ لا توهمي نفسك بانك ستنجحين في ايقاع جوليان في شرك الزواج يا آنسة كونيل. فهو ليس غبياً.

خيل اليها للحظة ان كارا ستقذفها بعصير البندورة اذ بدا واضحاً انها تشتعل غضباً بالرغم من نظارتيها الداكنتين، وتابعت فيفيان قائلة:

ـ من الطبيعي ان تغتاظي فانت جذابة جداً، ولست معتادة على المنافسة ولا سيما في الملايو حيث الفتيات العازبات نادرات نسبياً. لكني لا ارى موجباً لكل هذا الاهتمام لمجرد ان جوليان نفذ من شركك، ولديك معجبون كثيرون غيره. ام تراك تخططين مثلي للحصول على ثروته؟

فأجابتها كارا بصوت جليدي:

ـ لا تعولي كثيراً على نجاحك معه، فأنا تخليت عن جوليان قبيل مجيئك الى الملايو، لكني اذا رغبت في استرجاعه، فثقي بأني لن اجد صعوبة في ذلك. اعتقد انه بدأ يمل رفقتك.

جمعت فيفيان اغراضها ودست ورقة نقدية تحت الصحن. ثم ازاحت كرسيها قائلة:

ـ ان جوليان سيد نفسه واعتقد انه سيتسلى كثيراً عندما اخبره كم انت مهتمة بأمره.

واستطردت قائلة:

ـ من جهة اخرى، فقد لا يروق لجوليان ان يعلم بحديثنا ولذا قد اعدل عن اخباره. وداعاً يا آنسة ميتلاند.

لدى وصولها البيت وجدت رسالة من آدمز يعلمها فيها انه وجد لها عملاً مناسباً في احدى المقاطعات الجنوبية كرفيقة لابنة سلطان المقاطعة. شرح آدمز ان الفتاة في السابعة عشرة من عمرها وان السلطان يرغب في ارسالها الى جامعة بريطانية لكنه يريد لها رفيقة انكليزية ذكية كي تدربها لمدة سنة وتهيئها للعيش في اوروبا. وكتب آدمز مضيفاً:

ـ ان سموه يتعاطف مع تحرير النساء ولن تكوني مقيدة باي شكل. ابنته فتاة ساحرة واعتقد انك ستجدين العمل ممتعاً ومفيداً في آن.

طوت فيفيان الرسالة ووضعتها في جيبها. تبدو بالفعل فرصة ممتازة، كما وان الراتب الذي ذكره المحامي غاية في الكرم. قضت النهار تفكر في العرض وما ان حل الليل حتى توصلت الى قرار. سوف تقابل السلطان شخصياً، وفي حال حصولها على الوظيفة ستبيع بيت النوافير السبعة الى السيد وونغ.

بعد عشرة ايام طارت جنوباً الى رانغور. لقد ارسل السلطان طائرته الخاصة لاحضارها فوصلت القصر عند الظهر. استقبلها الضابط المساعد مرحباً بقدومها ثم اقتدت الى جناح فخم حيث افرغت حقيبتها وصيفة كهلة واعلمتها ان لديها وقتاً كافياً للاستحمام قبل موعد الغذاء.

وفيما كانت تسرح شعرها انتابها احساس مخيف بان هناك من يراقبها. تلفتت في ارجاء الغرفة وتساءلت عن وجود ثقب خفي في احد الجدران. ثم سمعت صوتاً خفيفاً آتياً من جهة النافذة فتقدمت على رؤوس اصابعها وانحنت على حافتها باحتراس تنظر صعوداً ونزولاً على الافريز الحجري المحيط بالجناح.

ثم سمعت ضحكة مكتومة وقفزت مجفلة حين رأت صبية ملاوية تجثم على الحافة الناتئة.

ـ مرحباً، هل تختبئين مني؟

نهضت الفتاة واقفة وكانت ترتدي صداراً توركوازياً وتلف جسمها الجذاب بسارونغ توركوازي واصفر. اما شعرها الأسود الكث فكان معقوصاً في جديلة تتدلى على خصرها، ولها وجه من اجمل الوجوه التي رأتها فيفيان في حياتها. قالت ببسمة اخاذة:

ـ انك الآنسة كونيل، اليس كذلك؟ ارجو الا تكوني غاضبة مني لكني كنت متشوقة الى رؤية شكلك.

فهتفت فيفيان مستغربة:

ـ اتعنين انك ابنة السلطان؟

ـ نعم. اسمي صبرية هل تأذنين بدخولي؟

ـ بالطبع. تفضلي يا صاحبة السمو.

رفعت صبرية ثوبها الطويل وارجحت ساقيها السمراوين فوق حافة النافذة. كانت تلبس خلخالاً محاطاً باجراس فضية دقيقة وصوت الخلخال فضح مكان وجودها. احتوت فيفيان بنظرة شاملة جذابة ثم سألتها:

ـ ما اسمك الأول يا آنسة كونيل؟

ـ فيفيان.

ـ كم عمرك؟

اخبرتها فيفيان فهتفت:

ـ احقاً؟ لا تبدين انك بلغت هذه السن.

- كيف تعلمت تكلم الانكليزية بهذه الطلاقة؟

- اوه، لقد احطت بالمربيات الانكليزيات منذ ولادتي. كن مضجرات للغاية، وخشيت ان تكوني على غرارهن انما اتضح لي الآن اننا سنستمتع كثيراً برفقة بعضنا البعض.

فلفتتها فيفيان قائلة:

- لكن اباك لم يوظفني بعد. قد لا يجدني ملائمة لمرافقتك.

- سيوافق اذا وجد اني اميل اليك.

كان السلطان في حوالي الستين من عمره ذا شعر اشيب خفيف ووجه مجعد بعض الشيء يدل على علم وثقافة. كان يجلس الى مكتب، ولما عرفته ابنته الى الضيفة دار حول المكتب وصافحها قائلاً:

- اهلاً بك في رانغور يا آنسة كونيل. يسرنا ان نتعرف اليك. ارجو ان تكوني وجدت كل شيء حسبما ترومين؟

اجابت وهي تنحني بتؤدة:

- اجل، اشكرك يا صاحب السمو. انه لشرف كبير ان ادعى الى زيارتكم.

قال بجدية:

- اعتقد ان ابنتي عجزت عن كبح لهفتها الى رؤيتك. اخشى ان تصبح مستهترة. اذا مكثت في انكلترا سنة او اثنتين قد تتقوم تصرفاتها الرعناء. ما رأيك انت؟

التفتت الى صبرية المتظاهرة بالحياء والوقار واجابت وشفتاها تختلجان مرحاً:

- اعتقد ان وجودها هناك قد يحدث تأثيراً معاكساً يا صاحب السمو، فقد تنجح ابنتك في جعل الانكليز اقل... جموداً.

فضحك السلطان.

بعد الغداء ابعد السلطان ابنته عن الطريق وعاد مع فيفيان الى غرفة المكتب. قال حالما جلسا:

- علمت يا آنسة كونيل انك تودين البقاء في الملايو انما يصعب

عليك مادياً ان تديري البيت الذي ورثته عن عرابك... ذلك الرجل الذي كنت اكن له اعمق الاحترام. اتظنين انك ستكونين سعيدة بالعيش مع ابنتي هنا؟

فردت بحرارة:

- انا واثقة من ذلك.

- يجب ان اشرح لك ان صبرية حادة الذكاء بالرغم من تصرفاتها المراهقة. املي كبير في ان تحصل على شهادة جامعية في الاقتصاد لان ذلك سيساعدها على مواجهة المشكلات التي سترثها بعد وفاتي. كان لي ولدان ذكران قتلا في الحرب وقد جعلتها ولية عهدي بموافقة المجلس الاستشاري. سوف ترين بنفسك يا آنسة كونيل انها ستكون خطوة ثورية كبرى لأن القضية النسائية ما تزال في مهدها. لذا من الضروري ان تتزود بالعلم والمعرفة لتواجه مسؤولياتها المستقبلية.

ثم طرح عليها عدداً من الاسئلة الدقيقة اجابته عليها فأومأ باستحسان وقال:

- اعتقد انك الفتاة التي ابحث عنها يا آنسة كونيل. الوظيفة لك ان كنت تريدينها.

وهكذا تم الاتفاق على ان تأتي للسكن في قصر رانغور حالما تسوي امورها في موبينغ.

عادت فيفيان الى موبينغ في صباح اليوم التالي. شيعتها صبرية، وفيما كانت الطائرة ترتفع فوق حدائق القصر لوحت بيدها للجسم النحيل الواقف على المدرج. خلال الرحلة تجددت ثقتها بصوابية قرارها. لكن فور وصولها الى البيت هاجمتها من جديد الحيرة السابقة. احست ان بيعه سيكون بمثابة القضاء على ملكية غالية.

بعد الغداء استدعت الخدم واخبرتهم بما سوف يحصل. ظهر الحزن الشديد على وجوه الجميع باستثناء تشن الذي تلقى النبأ بوجه جامد مما اثار فيها حيرة واضطراباً.

انصرفوا الى اعمالهم، فخابرت آدمز بالهاتف وطلبت اليه ان

يفاوض السيد وونغ في بيع المنزل، ثم امضت بقية النهار تنتقل من غرفة الى غرفة محاولة اقناع نفسها بصوابية تصميمها وبأنه من السخف ان تعذب نفسها بشكوك لا اساس لها من الصحة.

وفي حوالي الثامنة، تبلورت فجأة الفكرة التي راودتها طوال النهار فبادرت الى تغيير ثيابها وارتدت فستاناً من الكتان ثم ركضت الى المرآب لتخرج السيارة.

حين وصلت الى بيت طوم ورأت النور ينبعث من خلال ستائر غرفة الجلوس، احست بقرصة استرهاب وكادت ان تقفل راجعة، لكن حاجتها اليائسة الى التحدث مع شخص ما طغت على جبنها فأوقفت السيارة ثم صعدت بعزم الى المدخل المسقوف.

ـ مساء الخير.

ـ مساء الخير.

ظل واقفاً عند الباب ويداه مدفونتان في جيبه. مرت لحظة صمت مطبق ثم نهضت فيفيان قائلة:

ـ جئت لاودعك.

بقي صامتاً فاردفت متلعثمة:

ـ لا اتوقع ان نلتقي ثانية، لذا اردت ان... اشكرك على مساعدتك.

ـ اين ستذهبين؟

ـ وجدت عملاً في رانغور، وسوف ابيع البيت.

ـ فهمت. لا ريب انك ستجدين رانغور اكثر امتاعاً من موبينغ.

ـ ارجوك... ادرك انك غاضب... لكني...

ـ غاضب؟ لم تعتقدين ذلك؟

ـ اوه، لا عليك. انك لن تفهم بأي حال.

قال بلطف:

ـ لو كانت لدي فكرة عما تلمحين اليه لهان الموقف ربما.

ـ انت تعرف جيداً عما اتحدث، لكنك ترفض الاقرار بذلك لاني

اذا اثبت لك خطأ ظنك ستضطر الى الاعتذار الذي تأباه على نفسك.

ـ استمري. لا تحجمي عن اتهامي بأي شيء فلن تنجرح مشاعري.

ـ مشاعرك؟ لا اعتقد ان لديك شيئاً منها. اوه، قد تعطف على مرضاك لكنك لا تهتم بالآخرين. كل ما يهمك هو ان تحتفظ بتلك الهالة الرائعة من التفوق. ارجو ان تفعل... ارجو الا يشعرك احد بالندم او الخجل او انعدام الثقة لانه اذا حصل ذلك فلن تتحمل كرامتك ضربة قاصمة كهذه. كنت اظن اننا صديقان، ولما رأيتني في ما بدا لك موقفاً مشيناً سارعت الى ادانتي ولم تترك لي فرصة للتفسير فأثبت بذلك عن مدى صداقتك لي!

فغمغم قائلاً:

ـ فهمت، اذن كنا صديقين. ربما كنت تبغين علاقة اكثر امتاعاً. اهذا ما يثير حنقك؟ هل اغتظت لأني لم انهج نهج باركلي؟

تقدم منها فجأة ووضع يديه على كتفيها فزعقت حانقة:

ـ كيف تجرؤ على قول كهذا؟ اتركني!

ـ ليس قبل ان اثبت لك بعضاً من قدراتي العاطفية. ما بك تتظاهرين بالنفور من عناقي في حين انك لم تعترضي على عناق باركلي؟

شدها الى صدره بقوة وعبثاً حاولت الافلات منه. قالت بخوف:

ـ طوم، ارجوك... لم اقصد ما قلته... كنت غاضبة...

لكنه خنق توسلها بعناق عنيف وسريع.

٨ - توقف القطار ببطء فقادها تشن وسط الازدحام الرهيب الى مقصورتها ووضع فيها حقائبها واستدار مودعاً بحزن صامت . .

انتشر فجأة مرض الزحار وضرب المنطقة باكملها واخذ يفتك بالناس حتى امتلأت بهم المستشفيات. كان ذلك بالنسبة الى فيفيان، تجربة غريبة ومثيرة نفسياً. ابرقت الى السلطان شارحة له السبب الذي اوجب تأجيل سفرها. انصرفت بكل قواها الى ادارة مستشفى خاص اقامته في منزلها، حيث كانت تعمل ساعات طويلة بلا انقطاع وهي تركض في ارجاء البيت، تغير الشراشف، تنقل اوعية الماء، تهيء اكواب الحليب والسكر، تقيس الحرارة وتغسل اجسام مرضاها. كانت تشتغل بدأب وصبر حتى يفتك الاجهاد بظهرها وعينيها. فقد كان هناك شيء يحثها على الاستمرار. كان طوم يعود المرضى يومياً، ولفرط انهماكها في عملها لم تكن تحس الا بالارتياح لحصولها على ارشاداته المهنية وتشجيعه.

نزعت المنديل عن رأسها وقالت وهي تمرر اصابعها في شعرها:

- لقد عمل تشن بشكل دؤوب مع انه ما يزال يتظاهر بعدم رضائه عن كل هذا. سوف افتقده حين ارحل.

- اذن، ما تزالين مزمعة على الرحيل؟

- طبعاً.

عادا فجأة الى موقعهما القديم، لم يعودا طبيباً وممرضة بل رجلاً وامرأة. . . قالت:

- لكني عدلت عن شيء واحد، اذ لن ابيع البيت. سوف اسأل

الآنسة بكستون ان كانت تود استعماله مأوى للأطفال. لا ادري لماذا لم افكر في ذلك من قبل. لم تفرحني في الحقيقة فكرة بيعه الى السيد وونغ.

- هل اخبرت آنا؟

- كلا. لم اجد وقتاً لذلك. ابرقت الى آدامز وطلبت اليه الغاء مفاوضات البيع وايجاد شار لمجموعة الجاد. المال سيشكل منحة صغيرة واعتقد ان عرابي كان سيوافق على بيعها من اجل غاية كهذه.

- لكن ماذا عنك انت؟ ان ثمن البيت كان سيؤمن لك ثروة.

- اجل، لكني لا احتاجها. انا شابة ولدي عمل. سأتدبر اموري.

مساء احد الأيام احست فيفيان بثقل كبير. شقت طريقها الى الردهة وهي تتمسك بالاثاث خشية السقوط. كان كل شيء يموج امام بصرها وامتلأت اذناها بطنين مزعج. رأت تشن يحدق اليها من مكان بعيد. خاطبته فبدا انه لم يسمع كلامها، فمدت يدها الى زر الكهرباء اذ خيل اليها ان الدنيا اظلمت فجأة. وهنا احست نفسها تهوي ثم تلقفها الصمت والظلام بشكل فجائي.

بعد اسبوع من ذلك التاريخ قاس طوم حرارتها وجس نبضها ثم قال:

- لا ريب انك بدأت تضجرين من هذه الغرفة. سأسمح لك بالخروج نصف ساعة. لقد اصبت بنوبة قوية من الحمى. يجب ان تأخذي الأمور بتمهل.

ساعدها على ارتداء روبها وحملها الى الحديقة حيث كان الشاي والساندويش موضوعين على طاولة خيزران امام الاريكة الهزازة. قال بعد ان سكب الشاي وقرب الساندويش من متناولها:

- اذن تم الاتفاق على ان تنتقل آنا والأطفال الى هنا بعد رحيلك؟

- اجل، واصر تشن على البقاء لمعاونتها. كنت قلقة على مصير الآخرين لكن كيم فاجأتني بوجود خطيب لها - يعمل مساعداً في

مخزن التبريد - اما سائر الخدم فسوف يعملون في بيوت بعض العسكريين. وهكذا توصل الجميع الى حلول سعيدة.

فكرت في نفسها، لقد حلت مشكلات الجميع باستثناء مشكلتها هي...

على الرغم من مرضها كان الاسبوع الذي مضى سعيداً بالنسبة اليها، فطوم كان يعودها مرتين في اليوم ويعاملها بلطف كبير لن تنساه ابداً. انها تدرك بالطبع انه يعامل جميع مرضاه باللطف والعناية ذاتها ولكن العاشق يرضى بفتات الخبز ان لم يستطع الحصول على رغيف كامل...

وعادت تقول له:

- لم اشكرك بعد على عنايتك بي. كنت غاية في اللطف.

فقال مداعباً:

- انتظري حتى تصلك فاتورتي.

- متى سأستطيع السفر؟

- هل انت متلهفة كثيراً الى الرحيل؟

- لقد تسلمت الوظيفة ولا يمكنني التأجيل الى ما لا نهاية.

- معك حق. يمكنني القول انه بعد اسبوعين تصبحين قادرة على السفر، شرط الا تجهدي نفسك خلالهما.

صمت قليلاً ثم اضاف:

- ظننت انك قد تفكرين في البقاء لتساعدي آنا، فهي ستحتاج الآن الى معاونة.

اجابت بهدوء:

- لقد اقترحت علي ذلك لكن اعتقد ان السفر خير لي.

- ستجدين بالتأكيد فرصاً اكثر في رانغور.

- فرص؟

- اقصد انك ستتعرفين الى اناس في سنك.

- هل ابدو لك صغيرة جداً؟

فتأمل رويها الزاهي وشعرها المسحوب الى الخلف بشريطة صفراء وفمها الرقيق البريء وقال باسماً:

- تبدين الآن في السادسة عشرة.

- مجرد طفلة!

- لم اقل ذلك، فلم يكن هناك اي شيء طفولي في تحويلك البيت الى مستشفى وفي ارهاق نفسك بالتمريض.

- لماذا يعتبر كل واحد في عمرك ان سن العشرين لا تختلف كثيراً عن سن المراهقة؟

اجاب ضاحكاً:

- ربما لأنها بعيدة عن متناولنا. انتظري خمس سنوات لتري كم ستتغير ردود فعلك ايضاً.

- ليتني في الثلاثين من عمري!

- لماذا تريدين بلوغ الثلاثين؟

- لأنك لن تعاملني اذذاك كتلميذة مدرسة سخيفة.

- اتذكرين ليلة الحفلة وكل هؤلاء الشبان الذين رغبوا في مراقصتك؟ الم تشعري بانه كانت لديك سلطة خاصة عليهم لانك فتاة شابة ورائعة الحسن؟

كان يرقبها بتركيز فاحست بالدماء تصعد الى عنقها. وتابع قائلاً:

- من الطبيعي ان تشعري بذلك لكن اذا حاولت فرض تلك السلطة على رجال هم اكبر سناً منك فاللعبة تصبح خطرة لأن رجلاً في سني يتجاوب بشكل اعنف من تجاوب شاب فتي. رجوت ان تكوني قد ادركت ذلك بعد الذي حصل في بيتي تلك الليلة.

والتهبت وجنتاها وقالت بسرعة:

- كلا! لا افهم! لم احاول ابداً... ان اغريك... على عناقي.

- ليس بطريقة تلقائية ربما، لكنك تساءلت ان كنت سأعانقك ولما فعلت، انتابك خوف شديد.

حدقت اليه بدهشة حقيقية فقال موضحاً:

ـ لا تسيئي فهمي. الذنب كان ذنبي لاني نسيت كم انت صغيرة. لهذا السبب بالتحديد يجب أن تخالطي ابناء جيلك والى ان تتعلمي كيف تدارين هذه المواقف.

قالت بصوت جامد:

ـ فهمت. سأحاول ان اتذكر ذلك. اعتقد ان هذا ما اغضبك حين ظننت اني كنت اسمح لجوليان بتقبيلي. لأنه اكبر سناً مني.

تقلص وجهه لحظة ثم قال باقتضاب:

ـ شيء من هذا القبيل.

نظر الى ساعته ونهض واقفاً:

ـ يمكنك البقاء هنا لفترة قصيرة ان اردت لكن يجب ان تنامي في السادسة. سأمر عليك غداً.

ـ شكراً.

فمد يده وقال مبعثراً شعرها:

ـ نامي براحة يا صغيرتي.

ذات صباح، كانت تجلس في الحديقة تراقب سحلية تزحف على الجدار صوب فراشة غافلة عندما خرجت كيم لتعلمها بان الآنسة ميتلاند تود رؤيتها.

كانت كارا كعادتها فائقة الأناقة في قميص بيضاء وتنورة قطنية سوداء مخرجة بزهور بيضاء وحمراء من القش. قالت فور وصولها:

ـ صباح الخير. ارجو ان تكوني تحسنت.

ـ اجل. شكراً. هل لك ان تجلسي؟

جلست كارا ونزعت نظارتيها الشمسيتين فلاحظت فيفيان شيئاً غريباً في وجهها لم تستطع تحديده بادىء الأمر، ثم ادركت بانذهال انها كانت تبكي اذ رأت آثار دموع على محياها الرائع بالرغم من ماكياجها البارع. سألتها بسرعة:

ـ ما بك؟ الديك مشكلة؟

اغمضت كارا عينيها وتنفست بعمق وكأنها تستمد شجاعة على الكلام:

ـ انا احبه!

ـ اعرف انك تحبينه.

ـ تعرفين؟

ـ اجل. ادركت ذلك منذ فترة طويلة.

حدقت اليها كارا غير مصدقة ثم بدأت تبكي.

جففت كارا دموعها ثم استقامت في جلستها وقالت متنهدة بحزن:

ـ انت اخر شخص يمكنه ان يساعدني لأن جوليان واقع في حبك.

ـ هذا هراء ايتها الأوزة الغبية. فعلاقتي وجوليان ليست اكثر من حدود الصداقة.

فقالت كارا ودموعها تتجمع من جديد:

ـ لكنه اخبرني انه طلبك للزواج.

ـ لقد عرض علي الزواج لكنه لم يقصد ذلك. اسمعي، لقد آن لنا ان نتحدث بدون رسميات. لقد اردت اطلاعك على هذا منذ زمن بعيد الا اننا كنا نتصادم دائماً بطريقة مهذبة ومتمدنة. لم يطلب جوليان الزواج مني الا لانه كان في ثورة غضب على شخص آخر وهذا الشخص هو انت.

صمتت كارا ثم قالت بذهول:

ـ لا اصدقك.

ـ حسن، لا تصدقيني. استمري في تعذيب نفسك. استمري في التظاهر بانك لا تشعرين نحوه بذرة حب وبأنك سعيدة جداً بمغازلة كل هؤلاء الضباط الصغار السخفاء. ربما تحبين ان تصبحي عانساً عجوزاً وحيدة. لماذا جئت الي من الأساس؟

تهدلت كارا على كرسيها. قالت وهي تلوي منديلها باصابعها

النحيلة:

ـ اردت التحدث الى شخص ما. ليس لي اصدقاء ووالدي لن يفهمني ابداً اذ لا يفكر الا في شؤون الجيش.

ـ الا ترين ان كبرياءك هي التي تردعك عن مصارحته؟ لا يمكنك التشبث بكرامتك عندما ترغبين في تحقيق امنية كبيرة.

ـ اني حائرة في امري وافكاري. لا يجب ان ازعجك بمشكلاتي فأنت ما تزالين مجهدة.

فقالت كارا بسرعة:

ـ كنت على وشك الذهاب.

ثم اردفت تخاطب فيفيان:

ـ هل لي ان ازورك ثانية؟

ـ بالطبع. انا مسرورة لانك زرتني اليوم.

ولما انصرفت سأل طوم:

ـ لم ادر انك على علاقة ودية مع كارا.

واضاف:

ـ سمعت ما كنت تقولين لها لدى وصولي... حول رغبتك في البقاء هنا.

ـ سوف اندم على ترك المنزل. هذا شعور طبيعي.

ـ اذن لماذا ترحلين؟

ـ لاني اردت مغادرة موبينغ. اوه طوم، كف عن استجوابي! الاتفاق تم وانتهى الأمر.

فقال ناظراً اليها بتركيز:

ـ امتأكدة ان رحيلك لا علاقة له ببارکلي؟

فقفزت واقفة واخفت قبضتيها في جيبي تنورتها بعنف كاد ان يمزقهما:

ـ افهمتك ان جوليان لا يعني لي شيئاً على الاطلاق، بل اعلم انه يحب كارا وهي تبادله حبه. هل اقتنعت الآن؟

قال ببرود:

ـ استغرب عصبيتك لمجرد اني اردت التأكد من انك تفعلين الشيء المناسب لمصلحتك.

ـ لا موجب لأن تشغل بالك بمصلحتي. انا قادرة تماماً على حماية نفسي.

ـ افعلي ما بدا لك... اني اتساءل ان كنت ستتخلين يوماً عن استقلاليتك العنيفة هذه؟

ـ انت تنسى اني لم احصل عليها الا مؤخراً.

ـ اتلمحين الى اني احاول السيطرة عليك كما كانت تفعل خالتك الرهيبة؟

ـ بالطبع لا، ادرك انك تقصد ان تكون عطوفاً.

ـ هل ستتركين موبينغ بسببي؟

فتورد خداها وسألت باستغراب:

ـ ماذا تعني بذلك؟

هز كتفيه قائلاً:

ـ انت لا تودينني كثيراً. اليس كذلك؟

ابتلعت ريقها وردت بصوت اجش:

ـ انا لا انفر منك.

ـ لكنك توافقينني على اننا لم ننسجم ابداً مع بعضنا البعض؟

ـ كنا نختلف احياناً وننسجم تماماً في احيان اخرى.

لوح بيده متضايقاً وقال بخشونة:

ـ لماذا لا تعترفين بأنك كنت تكرهين تدخلي في شؤونك وانك بدأت تخافين تقرباتي منذ ان عانقتك؟ فكلما لمستك احسك تتقلصين.

هتفت بحرارة:

ـ هذا ليس صحيحاً. انا كرهت فقط طريقة عناقك، كما لو... كما لو انك كنت تحاول معاقبتي على ذنب ما.

حدق اليها برهة ثم قال بنبرة غريبة:

- ربما كنت اعاقبك. ربما ذكرتني بشيء نجحت في نسيانه.

- اتقصد خطيبتك؟

سألها متوتراً:

- ماذا تعرفين عن ذلك؟

- اعرف فقط انك كنت مخطوباً الى فتاة تزوجت من سواك.

- ذلك صحيح جزئياً. تلقيت ضربة مؤلمة منذ زمن بعيد. لكن، خلافاً لما تعتقده النساء، فان قلة من الرجال تتيح لعلاقة حب فاشلة ان تهدم حياتها يا عزيزتي.

- اذن لماذا لم تتزوج؟

- لسبب واقعي جداً، هو اني لم التق ابداً بفتاة رغّبتني في الزواج.

العاشرة من صباح اليوم التالي وصل مدير قسم الشحن في شركة وايتواي مع مساعدين صينيين ليوضبوا مجموعة الجاد التي سترسل الى سنغافورة لتحفظ هناك حتى موعد البيع. اختارت منها فيفيان، كتذكار، قطعة نارية تمثل حصاناً شامخ العنق مجعد العرف. اما سائر القطع فقد وضعت في علب مبطنة ونقلت كلها الى خزانة حديدية. بعد انصراف الشاحنة بقليل سمعت صوت نفير سيارة عال ثم ظهرت سيارة جوليان. وحالما رأته يساعد كارا على الترجل منها ادركت ما حدث. وقفت تستقبلهما على الدرج وهما يقبلان صوبها باسمين ومتشابكي الأيدي.

تنحنح جوليان استعداداً للكلام لكن كارا مدت يدها اليمنى بسرعة فرأت فيفيان خاتماً رائعاً من الزمرد يتلألأ على خنصرها. هتفت بحرارة.

- انت مخطوبة! اوه، انا فرحة جداً لأجلكما. متى حدث ذلك؟

قالت كارا وعيناها تتوهجان:

- ليلة امس. اردنا ان نزف اليك الخبر قبل الجميع.

- كم يسعدني هذا. اهنئك يا جوليان. متى ستتزوجان؟

رد جوليان باسماً:

- في اسرع وقت ممكن. لقد ارغمت كارا والدها على الموافقة وانا ابرقت الى اهلي اعلمهم باني قادم مع عروسي على اول سفينة. سنودع المناطق الاستوائية الى غير رجعة ونستقر في الوطن لنصبح اهدأ واسعد زوجين في الوجود. اليس كذلك يا حلوتي؟

ضغط يد كارا ونظر اليها بزهو حنون وكأنه لا يصدق حسن حظه بالحصول عليها. اومأت كارا موافقة. لم تبد ابداً بمثل هذا السحر المتوهج، كان جمالها قبلاً يتميز بروعة تمثال باردة، اما الآن فقد اضفى عليها تفاعل الحب القاً وحيوية جديدين. قالت لها فيفيان:

- هيا ندخل. اريد ان اعرف كل ما تنويان فعله.

قالت كارا بلهفة:

- ستبقين لحضور الزفاف، أليس كذلك؟ لقد باشر جوليان الحصول على الترخيص وانا سأبتاع حاجيات الزواج من سنغافورة ولذا فلن نؤخرك الا يوماً او اثنين.

- تعلمين اني اتمنى البقاء لكني اتفقت مع الآنسة بكستون على ان تنتقل الى هنا يوم الخميس، ويجب ان التحق بوظيفتي في اسرع وقت، بعد كل التأخير الذي حصل.

فقال جوليان بالحاح:

- هراء! لن يضيرك ان تؤجلي سفرك بضعة ايام. يجب ان تبقي لان كارا تريدك ان تكوني اشبينتها.

قالت بتردد:

- لا ادري كيف سأتمكن من ذلك. ارجوكما، لا تغضبا مني. تعلمان كم ارغب في حضور الزفاف لكني وعدت بأن اصل رانغور في التاسع عشر من هذا الشهر وقد يعدل السلطان عن توظيفي اذا اجلت الموعد مرة اخرى.

بعد ان غادر جوليان وكارا التجأت فيفيان الى غرفتها وطرحت

نفسها على السرير وقد اضناها كل ذلك الجهد الذي بذلته لاخفاء لوعتها اثناء وجودهما. لقد ابتهجت في الصميم لخطوبة كارا وجوليان، وحالما زاولها شعور الانفعال والاهتمام المبدئي، بدأت سعادتها الطاغية تعذبها في الخفاء، واخذت كل كلمة نطقاها تفتح جراحاً طازجة في قلبها الملتاع. كان اسوأ ما مرت به في حياتها هو اضطرارها الى سماع خططهما الملهوفة ومراقبة نظراتهما المتقدة واستشعار التيار المتدفق بينهما.

هتفت الآنسة بكستون بدهشة حين رأت فيفيان تدخل مكتبها:

ـ عزيزتي فيفيان. لم اتوقع زيارتك هذا المساء.

ـ جئت اودعك.

ـ تودعينني؟ لكنك قلت انك ستسافرين صباح الخميس؟

ـ اجل، بيد اني بدلت خططي. سأغادر الليلة. لقد اتممنا كل الترتيبات لذا لا جدوى من تأخري. سوف يرسل تشن امتعتي الثقيلة في وقت لاحق.

ـ فهمت.

مظهر الفتاة اقلق الآنسة بكستون اذ كانت باهتة اللون كالشبح وفي عينيها نظرة غريبة ومحمومة تقريباً. من الواضح انها تعاني مشكلة عميقة. قالت لها بهدوء:

ـ اعتقد انك ستستقلين قطار الثامنة الى كوالالومبور ثم تتابعين السفر نهار الغد. اذن لديك وقت لشرب فنجان من الشاي.

اجابتها بصوت متوتر:

ـ شكراً، لا اشعر بعطش. يجب ان اتوجه الى المحطة فقد يصل القطار باكراً. ارجو ان تراسليني لاطمئن الى امورك.

ـ سأراسلك بالطبع. لقد قدمت لنا خدمة جلى يا عزيزتي ولن انسى فضلك ابداً. لكني ارجو ان تزورينا بين فترة واخرى. رانغور ليست بعيدة عنا وقد اصبح لديك عدة اصدقاء هنا سيرغبون في

رؤيتك. هل سيوصلك طوم الى المحطة؟

ـ كلا، فكرت... ان اطلب اليك توديعه بالنيابة عني، فأنا قررت السفر قبل ساعات فقط ولم اجد وقتاً لرؤيته بنفسي.

ـ لكن، يا فتاتي العزيزة، لا يمكنك ان ترحلي بدون ان تودعي طوم! سينجرح شعوره كثيراً. ثم اني لا افهم الداعي الى سرعتك هذه. هل لديك مشكلة؟

ـ ليست هناك اية مشكلة. كل ما في الأمر... اوه، ارجوك الا تستجوبيني يا آنا. يجب ان الحق موعد القطار ولا اقدر ان ارى طوم. قولي له... قولي له اني سأكتب له قريباً جداً.

وقبل ان تتمكن آنا من مجادلتها القت فيفيان ذراعيها حولها في عناق يائس وسريع وخرجت من البيت مهرولة.

بعد ثلث ساعة كانت تذرع رصيف المحطة بقلق. تأخر القطار فأعلمها تشن انه يميل دائماً الى التأخر مقدار نصف ساعة عن الموعد المحدد.

كانت المحطة تغص بالمسافرين الذين جلسوا منحشرين على المقاعد القليلة الخشنة او جثموا مرتكزين على الحائط وهم يثرثرون او يتبادلون عبارات وداع مطولة مع اهاليهم المتجمعين بكثرة. رأت كذلك اكداساً من سلال الدجاج مكومة امام الأعمدة المزخرفة التي تسند السقف.

في الأخير اعلن صفير بعيد وصول القطار فبدأ الجميع يتدافعون ويتسابقون لتأمين مراكزهم. توقف القطار ببطء فقادها تشن وسط الازدحام الرهيب الى مقصورة مكيفة في الدرجة الأولى. ولما امن لها مقصورة النوم ووضع فيها حقائبها استدار ليودعها. كان وجهه الشاحب متقلصاً بالكآبة. قالت له بصوت مختنق:

ـ اعتن بنفسك يا تشن. اشكرك على عنايتك البالغة بي. سأكتب اليك.

فقال بحزن:

حدقت اليه غير مصدقة فسألها بعنف:
- الست كذلك يا فيفيان؟ الست كذلك؟
فأحنت رأسها وهمست:
- دائماً كنت كذلك.
- اذن لماذا اخفيت عني حبك بحق السماء؟
هزت رأسها لعجزها عن الكلام فهتف:
- ايتها الحمقاء الصغيرة! ايتها المجنونة الصغيرة...
الصق رأسها بكتفه واطلق تأوهاً نصفه ضيق ونصفه انتصار. كان تشن ينتظرهما. قال له طوم:
- خذ الحقائب الى منزل الآنسة بكستون واخبرها ان السيدة كونيل ستقضي الليلة عندها، فهي عدلت عن السفر الى رانغور.
فعلق تشن والابتسامات تكلل وجهه:
- حاضر ايها الطبيب. عظيم جداً ايها الطبيب.
- والآن، هل نحاول حل العقد؟
فقالت متلعثمة:
- لا... لا استطيع ان اصدق هذا.
اخذ وجهها بين يديه وغمغم وانفاسه تلفح وجهها:
- هل صدقت الآن؟
بقيت لحظة تمسك انفاسها وقد خشيت الى حد ما ان تثق بالتجاوب المتجمع في كيانها. ثم تنهدت بارتجاف واحاطت عنقه بذراعيها مستسلمة لمشاعرها التي كبتتها زمناً طويلاً.
في وقت لاحق اضاء طوم نور السيارة الداخلي وتأملها بنظرة مفعمة بالفرح والرقة. وقال:
- لا افهم لغاية الآن لماذا لم تحدسي شعوري نحوك اذ يفترض في النساء ان يستشعرن هذه الأمور.
- لأني لم التق رجلاً مثلك من قبل. كنت تبدو دائماً شديد الصرامة والتحفظ.

- لا يليق بالسيدة ان ترحل.
شعرت بغصة تسد حلقها ثم سمعت ضجة في الممر وما لبث ان انفتح باب المقصورة بعنف وهتف طوم سترانسوم بخشونة:
- ها قد وجدتك. عليك ان تخرجي يا فتاتي. القطار سيغادر بعد ثلاث دقائق ولن يكفي هذا الوقت لتشرحي لي قصدك هذه المرة. انزل حقائب السيدة يا تشن وانتظرنا في الفناء.
فصرخت فيفيان وهي تحاول الافلات من يده القابضة على رسغها:
- ماذا حدث؟ ما القضية؟
- الجواب عندك انت.
جرها معه الى الممر ولما بلغ الباب قفز منه الى الرصيف وانزلها خلفه. بعد ذلك قادها من يدها الى مكتب مدير المحطة حيث صفق الباب واقفله من الداخل ثم التفت اليها وقال بصوت كالجليد:
- تكرمي الآن واخبريني لماذا هربت من البلدة كالمجرمين؟
فسألته وهي تفرك رسغها المتضرر:
- كيف عرفت اني نويت الرحيل؟
- خابرتني آنا بالهاتف ولولا ذلك لاضطررت الى اللحاق بك حتى كوالا لومبور.
- لم اجد وقتاً لاخبرك. طلبت اليها ان تبلغك رسالة. اما الآن فاسمح لي بالخروج من هنا. لا يحق لك ان تجرني من القطار بهذه الطريقة. اذا فاتني القطار سوف...
- سوف ماذا؟
وفجأة انهارت معنوياتها وهمست بصوت معذب:
- اواه يا طوم، ما الذي حملك على المجيء؟
تقدم منها بسرعة واعتقل ذراعيها قائلاً:
- لأن آنا اخبرتني انك تتهربين من توديعي. لأني اكتشفت اني لن استطيع التخلي عنك. لانك جزء مني.

- قد تجهلين يا حبيبتي انك تحدثين فيّ تأثيراً بدائياً غير معقول. وفي مناسبات عدة تمنيت لو استطيع قتل باركلي لأنك اوليته ثقتك.

- ارجوك، كرر ذلك يا طوم.

- ماذا؟ كلمة حبيبتي؟

- طالما حاولت ان اتصور كيف سيكون وقعها وعجزت عن ذلك.

- بعد مضي خمسين سنة سوف تملين سماعها. متى ستتزوجينني؟

- في اسرع وقت ممكن.

- يمكننا قضاء شهرَ العسل في بينانغ اذا شئت. لدى احد اصدقائي فيلا في شمال الجزيرة ذات مسبح خاص. ما رأيك؟

فغمغمت كالحالمة:

- فكرة رائعة. طالما اشتهيت السباحة في ضوء القمر.

- هناك امر واحد فقط، هل تدركين ما انت مقدمة عليه كزوجة لطبيب؟ هل يمكنك ان تسعدي في الملايو طوال حياتك؟

فوضعت يدها في يده وقالت بقناعة ورضا:

- انا احبك واحب الملايو. لكن اذا خطر لك ان تأخذني الى القطب الشمالي فسوف اسعد هناك ايضاً يا اعز طبيب على قلبي.